# أيام... معها!؟

عبدالله عبدالرحمن الجفري





عبدالله عبدالرحمن الجفري









أيام... معها!؟

الطبعة الأولى ٢٠٠١

ISBN 1 85516 538 4

دار الساقي

بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان

الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣

هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)

e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

DAR AL SAQI

London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH

Tel: 020-7221 9347; Fax: 020-7229 7492

# المحتويات

● لعل عنوان هذه الرواية يُذكِّر الكثير من جيلي بعنوان الرواية الرومانسية الرائعة التي كتبتها الروائية السورية المبدعة كوليت خوري، وأكملت نشرها في عام ١٩٧٩، وعنوانها: (أيام معه)... وقد أرغدت المشاعر العربية حينذاك!

ويسعدني أن أذكِّر القارئ العربي اليوم بروايتها الجميلة من خلال عنوان روايتي هذه!

● (أحبَّائي: أنا غنَّيتُ أغنيتي كما جاءت

ففيها ألف إيقاع

وفيها من نشاز اللحن:

آلاف.. وآلاف

فيا أسماع جيل الأمس:

ما عندي من الالحان هتَّاف

ولا عندي لِنَاياتِ الهوى

المحذور.. عزَّاف!

فعمري.. موجة في لا نهايات من الهمس!

وقلب بالصدى المجروح..

رعَّاف!

ويا أسماع جيل اليوم والآتي:

صدى كلماتِيَ العذراء

محزون!

أحبائي: إذا جئتم فقد تجدون أنفسكم

كما تلتمُّ فوق الدُّر: أصداف)!

# هي... وهو

■ **سارة:**

لم تكن مُلْكَ نفسها.. برغم كل محاولات الاستقلال التي تمردّت بها ورفضت.. وبرغم كل تلك الشحنة الهائلة من الوعي الذي يعذّبها في معايشتها لسطحية الواقع البشري الذي يُشكّل مجتمعها، أو كيان المجتمع الأسري.. منذ فرض أهلها على حياتها شريكاً لم تقبله ولم ترفضه يومها... لكنها كانت تتساءل في نفسها:

ـ كيف تقوم هذه الشراكة أو الشركة من دون أن يتم التعارف بين الطرفين؟

تعدّت الآن مرحلة العمر المسوّر بالهيمنة.. وفضّت الشركة أو الشراكة بحجم الخسائر على امتداد السنين، وبأهمية الأرباح في استقبال ما تبقّى من العمر!

تعدّت مرحلة.. كانت تسمع فيها أيضاً: حكايات البنات، وماذا تفعل النساء في مجتمعها النسائي المُغْمى عليه!

كانت تواجه شرائح من النساء، ممن كُنَّ حولها، بنظرة

الاحتقار.. وهُنَّ يحصرن الحياة في خصوصية نسائية موجعة، مثل: الموضة، والمطبخ، والسفر، والتسابق على المظاهر والعلاقات الخاصة في مجال الهمز، و... اللمز أحياناً، في ذلك الاستغراق بعيداً عن الأحاسيس الطبيعية.

في الوقت الذي لم تكن مُلْك نفسها.. كانت حقاً للطرف الآخر الشريك، بمعنى الامتلاك أو الاستحواذ الذي يُلغي شخصيتها!

لم يكن الشريك يفهمها، ولا يجيد الاقتراب منها، أو دفعها هي للاقتراب منه.

كلاهما نقيض الآخر، ووَجَعه.

لكنها الآن تُكفكف تلك الذكرى، وتحتضن حصاد شجرتها منه: ابنها الوحيد الذي صار يشاركها في الاحساس بمعاناتها، أو الالتصاق بمشوار عمرها الذي أوقفت أعمقه على تربيته... في الوقت الذي كانت تشتاق إلى نداء حب، ودفء بوح.

وما زالت تشعر بأنها امرأة «قوية».

ومعنى القوة: يكمن في إرادتها، وليس في عنفها..

ضعيفة.. كلما صممت على كبت عواطفها، والتواري في العزلة، وتغريب مشاعرها واخفائها حتى عن «إنسان» تعرف أنها في وجدانه هي: الحلم، وأنها في نفسه هي: صوت عمره.

وما زالت ـ أيضاً ـ تذكر أنّ هذا الرجل الذي أعادت إليه صوتها من جديد الآن... وقفزت ضلوعه من صدره فَرَحاً بها ـ

بعودة حلمه ـ وصفَها ذات يوم غير بعيد، فقال لها:

ـ أنتِ: زهرة.. وسيف!

تُضمّخين لحظاتي الأجمل بعبقك.. كزهرة.

وتقطعين رأسي ـ كسيف ـ كل مساء.. بإلباس مشاعرك حجاباً، وبشرودك المفاجئ، و... بتموّج بوحك!

وأضُمّك زهرة فوّاحة.

دمي يسيل من ضربة سيفكِ.. حين الموت في عبقكِ، وفي حدِّك القاطع، هو: عمر العمق، وعمق العمر!



■ فارس:

فنان.. يخوض أمواج نفسه الإنسانية في بحر الكلمة تارة، والنغم تارة أخرى.. برغم نشاز صوته حين يأتي مباشراً.

أضناه التلفت في سنيّ عمره، بحثاً عن عمره.. بحثاً عن التوأم لروحه.

واستحوذ عليه الالتزام في مسؤوليات الحياة، والكيان الذي شكَّل منه أسرة.

عَبر الكثير من الفخاخ التي نَصبَتْها حوله: الرغبة المجردة، والتسليات العابرة في وقت فَقْده للحلم، أو ضياعه... وتلك القسمات التي خايلته في بدء دخولها إلى مساحة قلبه وخفقاته، ثم ما لبثت أن تبدَّدت.. لأنها تبدّت على حقيقتها: قسمات أفردت في

حياتها أهمية الأخذ وابتذال العطاء!

في بحر كلماته.. كان يصارع أمواج نفسه، ومنزلقات طحالب الآخرين من حوله.

كان بحثه عن نداء يتواصل بعفوية خفقة قلبه المُتعب من كثرة الاكتشاف تارة، والارتطام تارة أخرى... إلى حد الفجيعة!

طاف جزراً خرافية.. ظنّ أن سكانها يمنحونه نصفه الضائع منه، أو المفقود.

توقف عند محطات... أغراه الزحام فيها على تعدُّد الوجوه التي تتجاوز بالحس الانساني منعرجات الملل، والسقوط في الاعتياد.

لم يحسب أن يحصد ألوان التراكمات من طوافه على هذه الجزر الخرافية، وتوقُّفه عند محطات الزحام.

لكنه طفق يركض مُتْلعاً بشبابه، مشرئباً نحو أحلامه.. في بحثه المضني عن: توأم الروح والنفس.. عن القيم والحياة بعطاء الانسان فيها.. عن هذا الحلم الذي طالما انتظر عودته، كلما وُلد مساء جديد من رَحم سأم الأيام.

وفي كل مرة.. يخال له أنه يقبض على الحزن في أعماقه ويسكب مكانه: الفرح.

ثم... ما يلبث أن ينكفئ على نفسه، ينوح ولا يبوح.

تطفر من بين ضلوعه دمعة على افتقاد الحلم الجديد، وفي عينيه نظرات مُغذّة في البعيد المجهول.



# الفصل الأول

## عودة الحلم

طلعت في سمعه: صوتاً دافئاً، حانياً.

امرأة قادمة إلى حاضره المتشقق بعطش الروح، وصمت الفرح، وتشوُّه رغائب الانسان، وتفريغ الزمان من الحب!

كأنها انبعثت من حنايا ضلوعه، ولمعت كبرق خاطف.

أضاء صوتها العائد إلى حميميته: ملامح حلمه القديم الذي كان يستشرفه بتأملاته، فيَرى كياناً إنسانياً يحقق له عودة الحلم الأجمل... ذلك الذي طالما أرغد حياته، وسقى تربة نفسه الظمأى، وانتشله من ساعات سهر الوحدة في عمره، ومن سهاد لياليه الموحشة بغياب «الحلم»، وبانحسار الدفء الذي كان يسري بين ضلوعه كلمّا تناهى صوتها إليه.. فتستيقظ الحياة في داخله.

في البدء.. كان يحسبها مجردَ «صوت» أراد اقتحام وقته المزدحم بضجيج الناس، وبصمت فَرحه، وبتفريغ الزمان من الحب... ليطرح سؤالاً، أو يبلور حواراً حول: أفكاره وتأملاته.

لكنّ الصوت سرى في سمعه كجدول الماء الذي تدفق فوق أرضٍ عطشى.

هو الصوت نفسه... ذلك الذي كان يحياه في حلمه عن أجمل أيام عمره.

هي الضحكة نفسها... تلك التي كانت تشاكسه، وأحياناً تستفزه.. ليقُدَّ من ضلوعه بوح وجدانه الأعمق لأنثى هذا الصوت والضحكة!

امرأة... كان يحياها: حلماً، ويحلم بها: حياةً.

وكانت هي في عمره تراوح بين الحلم الذي يهدم كل الحواجز، والموانع.. وبين الواقع الذي يزيد من ارتفاع الحواجز والموانع.

كان صوتها يضحك وهو يقتحمه.. قائلاً:

- «إنتَ ما مُتْ»!!

- قال لها ضاحكاً بسؤال/إجابة: «مين..... أنتِ فقط»؟

- قالت: ذات ليلة نمت، وحلمت بأن عبد الحليم حافظ يغني لي وحدي من الزمن القديم الأحلى: في يوم.. في شهر.. في سنة، تهِدَا الجراح وتنام!!

- قال يسألها مفتتحاً دفء الكلام معها: وما الذي هدأ فيك ونام.. الجراح، أم الزمان، أم خفقة القلب؟

- قالت: الرجل يُكثِّف الجراح، والمرأة تحاول أن تعبث بالزمان قبل أن يعبث بها... وتبقى خفقة القلب المكنونة في سر البوح هي: الأعمق، والأنقى، وفوق الجراح، وعبث الزمان!

ـ قال: ملأكِ الزمان حكمة وفلسفة حتى فِضْت بهما... ولكني ما زلت أسأل: عن الذي هدأ فيك!

ـ قالت مغتاظة: أما زلت تفتّش أحلامي؟!

ـ قال: إعذريني... ضِحْكُنا صار قليلاً، وبكاؤنا اليوم هو الأكثر!

ـ قالت: أرجوك.. لا تجرح أحلامي بإغراقها في الواقع، لقد فكّرت في أن أسمع صوتك بعد كل هذه السنين التي غيّبت معها حتى الذكريات الأجمل.. فكنت أحاول أن أطرد الذكريات من خيالي وتأملاتي حتى لا تضعفني وتعيدني.

ـ قال: ولماذا فكّرتِ في أن تسمعي صوتي؟

ـ قالت: لأنك وحشتني!

ـ قال: صوتك ـ لو تعلمين ـ هو الحلم منذ تلك السنين... وهو يعبر سمعي فقط، ليسري في عروقي، ويستقر في شراييني مختلطاً بدمي.. ألا تذكرين أغنيتي التي كنت أرددها في سمعك دائماً:

ـ «يا خلّي القلب»!

ـ قالت: ما زلت ذلك الفتى المتدفق بعاطفتك.. ألم تهمد؟

ـ قال: كنتُ بركاناً هامداً... وصوتك السبب في اندلاع حِمَمي من جديد، إذا اعتبرتِ تدفق عاطفتي: حِمماً!

ـ قالت: ماذا كنت تتمنى قبل عودة حلمك؟

ـ قال: أن أعرف مساحتي في تفكيرك.. وأنتِ هنا وهنالك في البعيد، وفي الصمت، وفي قطيعتك لي!

ـ قالت: التعب.. التعب.. التعب، ذلك الذي نطلب الاستزادة منه.

⊛

ناداه صوتها أخيراً من المفاجأة... من هذا الطلوع الذي بشّره بعودة الحلم.

نادته أنوثتها التي تختال باحتفاظها الملحوظ بشباب العمر، وبنضارة الجسد... فكان نداؤها ينبعث من أعماق تجربتها الأصلية التي أثمرت سنوات طويلة من اللحظات الأحلى، ومن الجراح المترسبة، ومن التمرد الذي ساعدها على الوقوف كنخلة الصحراء الما زالت محمّلة بأشهى ثمرها.

وكان نداؤها يأتي من تجربة غيابها، أو اختفائها!

تشعر بأنها: سنوات بلا عمر.

إنها: عمر تجمّد في ركض السنين والأيام بها... وهي تؤدي وظيفتها في الحياة كزوجة لفترة طويلة، وكأم في الفترة المتجذّرة داخلها.

فرحت بأمومتها على امتداد سنوات العمر والتجربة، واللحظات الأحلى، والجراح، والتمرد... وقد تبقّت الأمومة وحدها هي: ثمرة عمرها، أو حصاد ركض السنين بهذا العمر.

كان بحثها دائماً.. هو بحث الروح عن مشاعر توحّد ذاتها

بذات الحلم الذي طالما نادته في مسيرة العمر، وطالما حبسته نداءات قلبها في صدرها الذي لم يكفّ عن التوحُّد بذلك الحلم!

لكنها في بعض الأحيان والتأمل لحياتها، ولطبيعة نفسها.. تعتقد أنها أنثى لم تحب بعد، أو أنّ من تريد حبه: شريك في مكان آخر!

أو أن الحب ذاته: مقولة، أو خرافة، أو وهم نُرغد به قلوبنا... لكنه يتحول إلى مجرد ممارسة حين الملامسة، واستجابة لاحتياج!

وحين شعرَتْ بأن هذا العمر مجلود بِجزي السنين، وأنها في داخله تنحدر تدريجياً إلى سن الاستقرار والهدوء، والبعض يسمونها: طلائع الشيخوخة... رفضت وهي تقف أمام مرآتها تشير إلى دلائل نضارة شبابها وجسدها.. وقد لامست سمعها كلمته:

ـ لقد انبعث جمالك مُجدَّداً... صرتِ أجمل، وأنا منبهر أمام هذه اللوحة/ أنتِ!

نداؤها على الحلم قد تخطّى ذلك الهمس القديم.. إلى هذه الصرخة المدوية.

وتعرف هي ـ أيضاً ـ أنها تعيش في مجتمع محافظ.. لا بد لها فيه من أن تئد «الحلم» الأجمل بين ضلوعها، أو على الأقل: تدسُّه، أو تُسِرُّه بين جوانحها... حتى لا يُصدر المجتمع حكمه عليها: ظالماً، ومبالغاً، ومتطرفاً.

إنها لم تفكر مطلقاً في هذه الخطوة التي تراها الآن في

مرحلتها الحالية: جارحة لالتزامها الذي ربطت حياتها الجديدة به... فهي مع داخلها عقدت هدنة واتفاقاً بنصوص هذا الالتزام، لتهدأ قليلاً، ولتستريح من لهاث جَرْي طويل.

لكنَّ «فارس» يسألها في عودة صوتها إلى إصغائه:

- هل تقدرين على الهدوء والاسترخاء بهذه الحيوية المجددَّة فيك؟

ما زالت حيوية التمرد والاكتشاف تتدفق مع نبرة صوتكِ... فكيف إذا وقفْتُ أمام وجهكِ، وأخذْتُ يدك بين يدي، وقبَّلتُ باطن كفّكِ؟!

- قالت تتدلل: حتى أمنيتك هذه لن أحققها لك.. برغم أنني أجمل وأحلى!

- قال: ولكنهم أخبروني أن جسمك قد امتلأ!

- قالت: لا تستفزّني من فضلك، ولا تصدقهم.

وضحكا معاً «ضحْك طفلين» عائدين من نهدة الحلم.....

حتى صمَت - هو - فجأة في مواصلة ضحكها هي.

- سألته: ماذا حصل لك.. هل غضبتَ مني، ولماذا؟

- قال: ضحكتكِ صارت أكثر صفاء.. فأردتُ أن أصمت لأستمتع بها أكثر.

- قالت: «أنتَ مجنون.. لكنْ إسمع، صرتُ أكره أن أكون عادة في حياتك... لا بد من أن نختلف ونتخانق كل يوم، وكل

ساعة.. وتزعل مني، أو... أنا أزعّلك أحسن، حتى يبحث كل واحد منا عن الآخر، ويفكر فيه، ويغتاظ، وتحبني أكثر»!!

ـ سألها: لماذا قلتِ «تحبني» أكثر، ولم تقولي: «ونحب بعضنا» أكثر؟!

ـ أجابته: لَمّا أنت تقول «تحبّني» كفاية!

ـ قال: ما زلتِ مغرورة، و... سيفاً أحياناً.

ـ قالت: «لا تفهمني غلط.. كلمة (أحبك) عميقة، فكيف نُهينها بترديدنا لها كل لحظة»؟

ـ قال: لكنْ الحب، أو الحلم... لا يتحوّلان إلى عادة كما تقولين.

ـ قالت: «يا فيلسوف حياتي اللي فالقني.. أنا أرتاح لجانبك، ومن الصعب أن أرتاح لأي إنسان... فكيف طوال السنوات البعيدة اللي راحت؟!

فهمت يا زعلي، ورضاي»؟!!

❀

تُحس في سرحات من الليل الذي تسرقها فيه تأملاتها: أنّ صدرها يكاد ينفجر وحدةً وسأماً.

الوحدة القاتلة: أن لا نجد من يفهمنا، ولا من يقدر على احتواء أسئلتنا وتمردنا، ودَفْق الدفء من مشاعرنا.

وحدتها مع نفسها.. لذلك لم تعد تميل إلى حفلات الصخب

و«الرغي»... برغم أنها أرادت كسر طوق الوحدة والعزلة عن حياتها، وانطلقت تلبي دعوات صديقاتها وسهراتهن.

تبرد في مشاعرها جمرة الشوق والانتظار لطلوع الحلم.

وكثيراً ما سهّدتها أفكارها حين تضع رأسها على الوسادة.. لكنها تملك القدرة دائماً على طرد الأفكار، وعلى رسم ابتسامة فوق شفتيها... كأنّ «حلمها» يُقبّلها في تلك اللحظة.

سألت نفسها قبل نومها ذات ليلة:

ـ حقاً... هل يختلف (الامتلاك) الذي يشعر به الرجل بمجرد اقترانه بزوجة: ان هذه المرأة قد صارت مُلكه تماماً مثل قطعة الأثاث... عن ذلك (الامتلاك) الذي تشعر به المرأة في بنائها لبيت، ولأسرة... وعن الامتلاك الآخر والأعمق بالحب واستمرار توهج العاطفة؟

قفزت من سريرها، وهاتفته متوترة:

ـ «قل لي.. لماذا تلاحقني الآن مدّعياً أنك تحبني، وأن عودة صوتي إليك/عودة الحلم... هل تريد أن تمتلكني ولو بالحب؟!

إسمع يا زعلي ورضاي... أنا لا أحد يمتلكني، ولو بالحب»!

فوجئ بثورتها بعد منتصف الليل، وحاول أن يمتص توترها الذي لم يعرف سببه... فسألها:

ـ هل لي أن أعرف مناسبة سؤالك الآن؟

هل ندمتِ لأنكِ أعدتِ صوتك إلى سمعي؟

ـ قالت: «أنا لا أَندم على ما أفعله.. صحيح أنت وحشتني، وقلتُ أسمعُ صوتك... ولأني أحب الفضول أحياناً ـ ما هو بدائم ـ أردت معرفة أخباراتك، وأستمتع بغزلك اللي تعوَّدت عليه»!!

ـ قال: «تاني... التعوّد»؟

ـ قالت: «أنت ودَّك أكون بطلة في قصصك»!

ساد صمت قصير بينهما بعد كلمتها.

ـ قالت: في الماضي كنتَ تغضب مني بسرعة.. كنتَ سريع الغضب.

لا بأس، ولكن.... أرجوك: إزعل وأنت تضحك.. أحسن!

ـ قال: لكنك تعلمين أنك أنت خلاصة قصة عمري، وأجمل لحظات حياتي.. فكيف تحصرين نفسك في هذا الدور المحدد؟

ـ قالت: «تعرف أنك مشكلة»!

ـ قال: ليتك تتحدثين كزهرة، لا كسيف... في دفئك أشعر بالأمان.. وجهك حين يشرق في أيامي يُزهر به فرحي.

❀

يضع رأسه المثقل بالأصداء وبالأفكار على راحة يده... كأنه يغفو ولا يستطيع... ويراوده سؤال مفاجئ من نفسه لقلبه، لكل حواسه وإحساسه:

ـ هل ما زلتُ أحبها، مثلما كان ذلك الاشتعال والوهج

والحريق والتمسك بها... أم أن السنين أبطأت الخفق؟

صمت قليلاً... لا يفكر، وإنما ينتظر إجابة قلبه وحواسه وإحساسه.

ومثلما فاجأه السؤال من نفسه... فاجأته في إثره: دمعة ساخنة انحدرت من حدقته... كأنها تلك الاجابة المنتظرة.

⊛

أسند رأسه المتعب بتمردها، والحافل بحواراتها القصيرة المختصرة، اللماحة الدالة على نضجها وهمومها وأحلامها ومعاناتها وتمردها... وطاف بهذا الرأس سؤال يختلط بمحتواه:

- تُرى... هل عاد اليه «الحلم».... من جديد؟!

لقد التقيا - هي وهو - منذ زمن طويل، وافترقا في أوقات مختلفة.. وبقي في الفراق المتعدد: خيط يشد أحدهما إلى الآخر... حتى في قطيعتهما، وصمتهما.

تُرى... ما هو ذلك الخيط؟!

يشعر بأنه مسؤول عنها، وعن كل الثِّقل الذي حملته واحتملته في بعض مراحل عمرها.

عن جنونها وتمردها حتى عليه.

عن غيابها الذي يطول، لتعود بعده وفي كل مرة: كمطر المواسم.. تهطل على أرضه القاحلة بغيابها، وترويها، و.......... يتوقف المطر!

وهي تعرف مشاعره هذه.

وتعرف أيضاً: أنه يعرفها من داخلها، وكأنه يقدّر مسؤوليته عنها على حساب قلبه واحتماله لجنونها ولتمردها!

ـ قال لها: أنا قدَرك.. فلا مناص لك، ولا هروب مني.

ـ قالت: ومن أنا بالنسبة لك؟

ـ أردفت: أنا أعرف... ولكني أريدك أن تقول...... دائماً.

ـ قال: أنتِ حلمي الدائم الذي يُفارقني كلما وجدته.. ويجدني كلما احتجت إليه... أنتِ حلمي المتوحّد مع عمري وأفكاري وسأمي وغضبي وجنوني وحناني. في كل غربتي وتجوالي وتجاربي... تأكد لدي أنني لم أكن أنتظر امرأة غيرك ولا مثلك.... أنتِ بالذات.

ـ قالت: ولكني أحياناً مزاجية كما وصفتني... وأنا قررت الآن: الاسترخاء، والهدوء... فدَعنا ننمّ صداقة بيننا!

ـ قال: وهل تظنين أنه من الإنصاف أن تقتحمي حياتي بهذا الاحتواء الكامل الذي ارتضيته، وعبر سنين غَذّت في البعاد، وبمنتهى البساطة تُصْدِرين قرارك أو (فرمانك) بما يجب أن يكون عليه شعوري نحوك؟!

دعينا ـ يا حبيبتي ـ لا نتحدث عن الغد، فلقد تحدثنا عنه كثيراً وخذلتنا أضداد الحب والوعي!

إنّ الغد ليس مُلْكنا... بل هو غرسة اللحظة الأولى التي سمعتُ فيها صوتك/الحلم .... وتوحّدت مع نبرته الدافئة من أعماق صدرك، ومع الانسان الذي يسكن في أعماقك. وكنت خائفاً عليك مما ظننته عزلة حبَستِ نفسك فيها!

ولأول مرة أعرف أن هناك إنساناً يحبس نفسه في الاسترخاء والهدوء!

صدقيني ليست مسألة ثقة، ولا هو خوف، ولا حتى عشق... بل هو «الاعتبار» للانسان في داخلي وداخلك.. لهذا «الحلم» الأحلى الذي سقيتُه من دم شراييني، ومن دموعي، ومن سهادي، ومن غربة نفسي في افتقادك، وحتى من ابتساماتي... ليزهر «الحلم»/ وجهك دائماً.

ـ قالت بهدوء كأنها تستفزه به: «طيب..... تِصبح على خير»!!

# الفصل الثاني

## المثقّفة

في هذا السكون الذي أعقب إنزال سماعة الهاتف من يد «سارة»... تلفتت حولها في المكان، وقد سقطت في حيرة السؤال: ماذا تصنع الآن؟

لا بد لها من أن تتحرك، أن تقوم وتفعل شيئاً.

لماذا أنهت حوارها مع «فارس» بهذا البرود الذي افتعلته في قمة دفء حديثه وحماسته؟

لا تدري... ربما أرادت أن تكبح اندفاعته.

ربما قصدت أن تُغضبه ليثور عليها.

فهل هي في حاجة إلى رجل: يثور عليها، ويصرخ في وجهها... ليكبح هذه اللامبالاة التي تصبغ أيامها الحالية؟

تعرفه جيداً... إنه شديد الحساسية، ربما غضب منها الآن، لكنه لا يقدر على أن يقاطعها... هي وحدها التي تقدر على أن تقاطعه، ثم تعود إليه وقتما تريد!

ارتسمت ابتسامة غرور على شفتيها.. وهي تهمس لنفسها:

ـ لكني لا أقصد تقزيم شخصيته أمامي... فقط يحلو لي أن أشاكسه، فهل أنا عدوانية؟

لا.. لا.. لا أظن، فقط: استفزازية، وهو في استفزازي له يبدو كطفل يحتاج إلى حنان أم.

و..... ماذا عنها هي الآن؟

منذ «سنة الطلاق» ـ كما سمتها ـ وهي تحاول أن تتمرد على ما حولها.

كانت قد عزلت نفسها في داخلها.. وانطلقت من هذه العزلة تتفرج على الناس والحياة، كأنها خارج طقس هؤلاء الناس، أو خارج اللعبة كلها.

راحتها التي استقرت فيها أخيراً: أن تتأمل، وتُصغي أكثر مما تتكلم.

لعبتها: أن تتفرج، وتقترب من المكان الذي تعتقد أنه يستهويها، وتقفل الباب بإصرار وعنف أحياناً في وجه أي «رجل» تشعر بأنه جاء ليقتحم حياتها الجديدة ـ راحتها، ولعبتها ـ ليستحوذ عليها، ويمتلك مشاعرها، ويأمرها فتطيع، أو «تنخّ» ويُخضعها لرجولته!

ـ قالت لها أقرب صديقاتها اليها، وقد صارت تنتقي كل من تُقرّبه منها:

ـ هذه عزلة... لا، بل سجن لعاطفتك، وربما لعفويتك كإنسانة!

ـ أجابتها: لا أشعر بهذا السجن الذي تصفينه... أحياناً يكون السجن الأقسى في خوض الناس في خصوصياتك، وفي استقلالية تصرفك أو فكرتك!

ما زالت قوية في التمسك بتمردها.. لكن قوّتها هذه المرة صاغتها من جديد: امرأة أخرى مختلفة عن «النسوة» اللواتي عاشرهن فكرها... وعاطفتها في داخلها تنثر الأسئلة الحادة على امتداد سنوات عمرها.. ولا واحدة منهن استطاعت أن تشير لها إلى إجابة واحدة تفسر هذا التدجين الملحوظ لدورها كامرأة يسمونها: نصف المجتمع!

عندما كانت في سن المراهقة.. تتقافز من الخامسة عشرة إلى العشرين، كانت الحياة تبدو في نظرها: ضحكة، وسهرة، وأغنية، ورقصة، ومحادثة هاتفية تعتبرها دائماً «للتنفيس» عن أشياء كثيرة معتقلة في رأسها، وبين ضلوعها!

وعندما نضجت قليلاً بعد نهدة العشرين.. بادر أهلها إلى تكبيلها بلا استئذان من عقلها، وبلا استفتاء لخفقات قلبها... فزوّجوها، لأنه لا بد لها من أن تتزوج، أو هكذا بنات العائلات والبنات الجميلات!

وعندما ضمتها غرفة واحدة مع عريس الغفلة، في أول ليلة من شهر ما يسمونه العسل.. سألته بجرأة مستمدة من رفضها لكل السيناريو (المعتاد) في مجتمعها:

ـ من أنت؟!

ـ وبعفوية، وبقهقهة ساذجة فارغة بلهاء.. أجابها: أنا رجُلك... زوجك!

ـ قالت له من دون أن تستهدفه بالاستفزاز، أو تحط من قيمته: لكني لا أعرفك... فهل تعرفني أنت؟

ـ قال: أعرفك جداً... فأنت ابنة أحسن الناس وأطيبهم، وأكثرهم فروسية برجولته وبمواقفه.

ـ قالت: إنك تثبت بإجابتك هذه أنك تجهلني تماماً... فأنا لم أسألك عن أبي، ورجولته ومواقفه.. بل عني أنا التي ستعاشرها، (والمفروض) طول العمر... من أنا في فهمك لكياني ولشخصيتي؟

ـ قال: أنتِ التي اخترتها لتشاركني مشوار الحياة، و... تملأ بيتي أطفالاً!

ـ قالت: فقط... لا شيء غير هذا، أوَلا يهمك في شخصي إلا «الإنتاج» لك، كمعمل تفريخ؟!

ـ قال مندهشاً: ما هذا.. ما هذه اللهجة.. ماذا تقولين وتقصدين؟!!

ـ قالت: ماذا تفكر أنت.. ماذا أفكر أنا.. ما هي الصفات التي نتّحد فيها، أو حتى يتقارب بها كل واحد منا من الآخر.. ما هي مفاتيح شخصيتك، وشخصيتي؟

ـ قال: يبدو أنني تزوجت فيلسوفة، أو مُحاضِرَة في مدرَج الجامعة!

ـ قالت: أرجوك... من دون أن تسخر، ففي إمكان كل

واحد أن يسخر، ولكن ليس في إمكانه أن يُقنِع.

ـ قال: ولكن... لماذا كل هذا التعقيد، ومن الليلة الأولى التي يضمنا فيها عش واحد؟!

ـ قالت: تُسميه الآن «عُشاً»... وبعد سنة قد يعلو صوتك وأنت تصف هذا العش بالسجن.

لقد أردت بأسئلتي من البدء: أن يفهم كل منا الآخر.. فلا نختلف، ولا نجد بيننا بعد ذلك: الجدار السميك الذي إذا قام فلا نستطيع أن نهدمه.

❀

لم يثمر حوار الليلة الأولى من شهر العسل تقارباً... بل ذلك الحصر لاهتمام الزوج/البعل في (التمتع) بزوجته الجميلة، الشابة، النضرة... قبل أن ينتفخ بطنها، وتنشغل بأمومتها عنه..

ولم تَرْضَ بهذا الواقع الذي فرضته أسرتها عليها، وسمّته لها أنه: حياتها الجديدة.

ولم تكن ـ في ذلك السن ـ قد تحولت إلى: امرأة قوية.. ترفض، وتتمرد، وتُشكِّل حياتها كما تريد.

استمرت الحياة بينهما، أو حولهما.. لكنها لم تكن تشعر يوماً: بأن الحياة في وجدانها، ولا في معايشتها ومعاشرتها لهذا الزوج/البعل.

وعندما تفتحت مداركها أكثر، وتراكمت تجاربها، وتمدّد اختناقها بحياة زوجية تطفح بالمعاناة... أدركت أن الحياة ليست كما

تعيشها، وليست كما قبلتها ذات يوم.

مع انحدار دمعتين كانتا تفرّان من حدقتيها، وتُخضّبان كالدم وجنتيها الما زالتا نضرتين.. همست لنفسها:

- الحياة أكبر بالتأكيد، وأكثر اتساعاً، وجمالاً، وانطلاقاً، وبهجة، و... عفوية!

الحياة كما استلهَمَتْها من معاناتها الطويلة: أن يجد إنسان نفسه في الآخرين، ويجد الآخرين في نفسه!

أما هي... فلم تشعر بذلك كله، ولم يتحقق لحياتها... بل بقي محبوساً في نفس واحدة!

وحاولت - بعد سنوات ذلك الحبس أو الانحباس - أن تفتش عن «لحظة» من الحياة الأكبر والأكثر اتساعاً، وبهجة، وانطلاقاً..... وأن تباشر الحياة بقناعتها، وباختيارها.

لم تكن تريد أن تفقد ثقتها بالرجل... تمنَّت ذلك في مرحلة أخرى من حياتها.

وحانت لحظة الطلاق.. بكل خميرة الذكريات، والماضي، والطفل الوحيد الذي ملأ حياتها في كل ما تشعر به من تفريغ مؤلم لها، و.... تلك الأحلام التي أحبت بها وفيها، وحاولت تجسيدها: حياة أخرى/خارج الطقس، وفوق العمر.. وأبعد من اعتيادية الصحو، والنوم، والطبخ، واللبس.. وأشمل من انتظار الزوج في مخدع النوم، فلا يأتي طوال الليل.. ويبقى في مجلسه الخاص ساهراً مع أصدقائه، والساهرين من أجله.. وتبقى هي بين

جدران كل غرفة من هذه الفيلا الأنيقة، ذات الأثاث الغالي أو الباهظ ثمناً: وحيدة، ملولة، شاردة الذهن.. وتستيقظ جوانحها بكل شراسة الوحدة في هذه الأصداء التي حولها.

استرجعت لحظة الطلاق الآن، بعد مرور أكثر من عامين عليها.

تلك اللحظة المهولة التي تبدو بشعة، مزلزلة.

ثم .... التي صارت بعد هولها، وبعد وضوح جوانب وزوايا الأشياء التي بدت غامضة أو صعبة في حينها: لحظة مريحة، ساكنة، مسكونة الآن بتأملها، وبفتح «ألبوم» حياة، واستعراض صور عمرها، منذ أن شبَّت عن طوق طفولتها/عمراً، وتمسكت بطفولة نفسها وروحها إحساساً حتى الآن... فوجدت أنوثتها تفرع بجسدها الذي يطول!



قرَّرَتْ بعد «تجربتها»: أن لا تنبس بكلمة حب لرجل، حتى حين تصرخ خفقاتها في عطش الروح، وأنين الوحدة... حتى ولو كان الرجل «فارس» هو الذي أحبها يوماً ما، وما زال يُمحضها صدق نفسه من عمقٍ استقر حبه لها فيه!

أرادت أن تُجرِّب عطاءً من نوع آخر، ولكن... لنفسها فقط.. لذاتها:

- أن تعطي لنفسها ولذاتها ما يريحهما ويبعدهما عن «وجع القلب»، وهموم الحب، وقلق الشوق، وتقلُّب الرجل أو سأمه!

صارت صامتة في حوارها مع الرجل عندما يبدأ معها حديث الحب.. حتى «فارس» الذي صارت تثق بصدق عشقه لها، وإشراقة شموسه كلما تربعت في سمائه.

وأحياناً تخرج من هذا الصمت بعبارة، أو بكلمة واحدة.. لا يهمها أن تكون جارحة له، أو متصدية، أو مانعة لتسلله إلى قلبها، أو ... قاتلة لمشاعره نحوها.

وعندما أراد هذا الرجل أن يلفت انتباهة مشاعرها إلى خفقاته التي عادت تمطر على أرضها من جديد.. فوجئ بحدَّة في صوتها، وهي تحذره ضاحكة عابثة بوجدانه:

- إلزم حدّك من فضلك... أراك الآن رجلاً متطلباً، تستزيد ولا تكتفي.. تتدفق ولا تقحل أبداً، تماماً كما عثرت عليك أول مرة... كأنك لم تنس أبداً!

بالنسبة لي.. أقول لك أيضاً: لقد تغيرت، كثيراً!

صرت أرفض أن تقتحمني عواطف رجل، وأن تقودني وتسيِّرني.. كأنه زوجي المتسلط!

الآن - في هذا النضج الذي بلَغتُه من العمر - أرفض أن يتحكَّم رجل في خطوتي، ودخولي، وخروجي، وحتى رغبتي في البقاء مع نفسي وحدي.

أرفض مطاردته لي، وتفتيشه في تلافيف عقلي، وفي خزانة نفسي، وفي زوايا قلبي... حتى ولو (فكرت) في أن أحبه عشقاً!

لم أعد أطيق أن أمنح هذا الحق لأحدٍ مهما كان.... غيري «أنا».

نضوت عن قلبي وعقلي.. ولحظات حياتي: عباءة التبعية لرجل... حتى لو كان أنت بذاته.

أي رجل يريد كل أشيائي.. وحتى شرودي فيه وحده بأنانية مطلقة!

تقول الحب؟!!

حسناً... إنني لا أرفض الحب، ولا أقف سلباً من الرجل.. لأنني بكل ما سمّيته: مواقع وحواجز في حياتي.. فأنا لا أبني سياجاً يفصل بيني وبين الرجل!

يمكن أن أشعر في لحظة دافئة مشتاقة: بأنني أحبك، وأنني أريدك فوراً.... فتأكد من أنني سوف أجدك!

ليس غروراً ـ صدّقني ـ لكنني أحاول أن أنسج إحساساً مختلفاً، من دون اعتساف، ولا حدة، ولا مطاردة من طرف للآخر.. هو هذا الاحساس العفوي، وربما المباغت، والآني بأنانية الحب.

⊛

شرد بها صمتها وراء صدى صوتها... وقد قصدت أن تُبلغ هذا (الفهم) لخفقات قلب «فارس» التي تلهج باسمها منذ زمن بعيد.

واسترجعت أصداء صوته أيضاً... كأنه يطلب منها أن تواصل الكشف عمّا في سريرتها، وعن عاطفتها نحوه، فقال:

ـ إذاً... لم يبق لديك «الحب» الذي كان يشكل حياتك؟!

ما تريدينه، أو تخضعين له في بعض الوقت.. هو بالتحديد: استجابة الاحتياج لديك كأنثى للرجل.

إنه وقت للتفريغ العاطفي الذي يتبلور ممارسة!!

- قالت: أنت تشتمني يا فلان... ومع ذلك أعرف أنك ستغضب مما قلته لك، وترفض بإصرارك المعهود ما تسميه أنت أحياناً: لا مبالاة مني بك، أو ما تصفه في أسلوبي العاطفي معك، بأنه: قسوة عليك، بل.... واتهمتني بالسادية التي أمارسها معك لأتلذذ بتعذيبك في حبي!

لقد جرَّبت مجتمعاً آخر.. عشت فيه، واندمجت، وشدّتني ثوابت لا بد من أن تتوافر في العلاقة الانسانية.. ومن أهمها: الإبقاء على الشخصية الذاتية، حتى ولو أدميت عيني بدلاً من الدموع دماً... إنه سلوك حضاري اقتبسته من مجتمع نسميه متطوراً، والمهم فيه: آدمية الانسان.

ومن أهمها أيضاً: الوضوح في العلاقة.. بمعنى: لا تحاصرني ولا أطرد وراءك، مادمتَ تثق بحبي لك، ومادمتُ أريدك وتريدني.

ومن أهمها: الانطلاق في زحمة الناس.. لا تغار من دخولي وخروجي إلى هذه الزحمة ومنها.. لا أسألك: ماذا تفعل إذا وجدت الثقة.. لا تسألني: أين كنت، ومن هو الرجل الآخر الذي ضحكت معه!

لم أعد أطيق أن يحاسبني أحد على ممارسة حريتي الشخصية.

أعرف أنك ستقول: إنني أخرج بك أو بنا من مجتمع محافظ

وربما مغلق.. إلى مجتمع منفتح، وقد لا يكون محافظاً في حكمنا المُلْزِم.... برغم أن هذا العالم قطع أشواطاً بعيدة على درب الحضارة، وشملت إنجازاته العلمية العالم.

وأعترف: بأنني لا أنكر طبيعة النفس البشرية وذاتيتها... لكنني بقيت عدة سنوات في غمار أو زحام تلك المجتمعات. أنطلق.. وأفْرج عن إنسانيتي وحريتي من قيودهما ومن المحظورات التي كبلتهما حتى البلادة... وذلك في حدود التزامات تقرها سلوكيات، ولا أتنازل عنها.

ـ سألها: ولكن... ألم تُصابي بالملل من هذه (المَيْكنة) في المجتمعات المتحضِّرة.. من الزحام، وضغوط الماديات، والواقعية المباشرة إلى درجة استفزاز الروح في داخلك، واستجابة الاحتياج التي تنتهي بالرغبة؟

ـ أجابته: أنت تسميها «ميْكنة» لأنك ما زلت تحافظ على ما حفره المجتمع في أعماقك، برغم استجابتك للانطلاق، و... العبث كرجل: تمارس، وترفض حق الطرف الآخر!

ومع ذلك... أقول لك: لقد بقيت في تلك السنوات: أقرأ، وأقرأ، وأقرأ.... وكان البعض من صديقاتي هناك اللواتي تعرفتُ عليهن في الزحام، يُطلقن عليَّ صفة: (المثقفة)!

ولعل هذا الشعور المحفوف بالغرور انتابني في بعض اللحظات، لأنني تنبهت إلى حُسْن حواري ونقاشي، وسهولة توفير الأدلة، وبراعة جدلي لو أردت!

فرحتُ بحياة جديدة.. فررت بها خطوات بعيدة عن هذا

الترصد لحرية الانسان الشخصية، وحتى عن: التلصص على أفكار الانسان، وعلى خفقة قلبه.. ومَنْ يحب، ومَن يكره، ومَن يعاشر!

خرجتُ من مجتمع.. ليست مشكلته: الانغلاق، أو المحافظة... بل مشكلته الأساسية تكمن في تفريغه من المنطق، ومن الحرية الشخصية، ومن عفوية التصرف من دون اعتداء على حريات الآخرين، ومن حوافز الابداع... حتى تشوبه العاطفة الانسانية الأنبل، وذلك حين يرمونها بالخطيئة، أو بالانحراف... كأنَّ هذا المجتمع أُدخل كلُّه في فرن لانضاج شَجْبه الدائم لكل تلك الأساسيات لقيمة الانسان، وإصابة عواطفه بالعُقَد من كثرة تحذيره من الحب، ومن الفرح، ومن الابتسامة، ومن الترفيه عن نفسه..

حتى لو نظرت إلى وجوه الناس في الشارع، في «السوبر ماركت»، ووجوه المذيعين على شاشات التلفاز، وحتى وجوه المشاركين في الندوات... فلا بد من أنَّ ملاحظتك ستتركز على ظاهرة: الوجوه العابسة المتجهمة التي نسيَتْ الابتسامة، كأنها تخضع لحظر على الضحك!

و«النسوة» كما يقول الرجال: أُصِبْنِ بالاكتئاب من كثافة عبوس رجالهن، حتى داخل البيوت من هذه العدوى المنتشرة!



فجأة... رنّ الهاتف في غرفتها التي فاضت بالصمت، وبشرودها إلى حياتها في الماضي:

- «أهلين... كيف وجدت الفرصة لتتصل بي بعد منتصف الليل؟

- «اشتقتُ إليكِ... أنت أنهيت محادثة أول الليل ببرود، فقط... أردت أن أخبرك أنك فشلت في استفزازي!

- يا....... برودك، معليش.. إبتسم فأنت في جدة!

- ها أنذا أبتسم لك... لكنَّ وجهك أحلى وأنت تبتسمين.

- غزلك سخيف هذه اللحظة... فماذا تريد مني الآن؟

- لا أرفض «قُوَّتِك» التي تحاولين تركيز عدسة الزوم عليها معي كلما جمعنا حوار... ولا أريد «ضعفك» الذي تُدارينه عني في تضاعيف نفسك... فلستُ أحب المرأة الهلامية، ولا المرأة النعجة.

- حسناً... عباراتك جميلة، ولكن أسرع وأخبرني: ماذا تريد مني بالتحديد؟

- أعرف أنك تتَّشحين أحياناً بعباءة القسوة الظاهرة... فليكن، سأبقى شاخص القلب اليك، متدفقاً، وأعتذر عن إزعاجك في منتصف الليل.

وضعت سماعة الهاتف، وهي مندهشة من لهجتها معه: لماذا خاطبته بهذا العنف؟!

- قالت: ليكن... ماذا أفعل له؟!

❁

كأنه انسحب من دائرة ضوئها... لم يعد يتصل بها ولا يشاكسها بملاحظاته، وحتى بعفويته التي تتوارب من خلالها: طفولته معها.

اختبأ بعيداً عنها في الصمت، واحتمل غياب صوتها ووجهها عن سمعه، وبصيرته، كأنه بهذا الانسحاب قد صافح عزلتها لنفسها، وانضم معها إلى عينيها وسَمْعِها في رغبة التفرج على الناس والحياة.

ومرّت أيام على هذه التجربة المضنية له، وهو يسأل نفسه:

ـ حقاً... هل صارت أشواقنا الأصلية خارج لعبة الناس مع الزمن، وعبث الزمن بالناس؟!

لعلها تجيب هي يوماً عن السؤال.. بعد أن أهملت الإجابة عن الأشواق!

تحوّل وريده إلى درب يوصله اليها دائماً، وهي لا تشعر..

امتزج تعبها وتمردها بدمائه: بابه السحري الذي يدخله في أي وقت إلى بهائها، وذاكرتها التي تحكّمت في حبسها وإطلاقها وقتما تريد.

لا بد من أن يتعلم من صفات صحرائه، وصبّارها، وحنظلها: كيف يحتمل «الجَملُ» فيه العطش؟

إن هذه المرأة/الأنثى.. صارت طقوسه، وكل انكساراته.

صارت هي وحدها: انعتاقه من الحنظل ومرارة الأيام.. وهي لهفته الخرساء التي تُشكّل برغم صمتها: سفره إلى أمان الروح.

تستطيع هي ـ وحدها أيضاً ـ أن تسلبه الطقوس، والانعتاق،

واللهفة، والسفر إلى أمان الروح، كلما أرغمته على تفريغ العمر..
عمره هو: منها!

وفي انسحابه من دائرة ضوئها، والتوقف عن الاتصال بها، ومشاكستها.. فوجئ بها ثانية:

في مساء كان «يهدهد» فيه وحدته.. وصَله (خطها) بكلمة واحدة، أرسلتها إليه، تقول له فيها:

ـ وحشتني!!

# الفصـــل الثالـــث

## العـــودة المفاجئـــة!

هل عادت «سارة» ـ فجأة ـ إلى وجود «فارس»؟

هل هي التي أعادت نفسها إليه: مشتاقة، أم مشاكسة.. أم مجرد صدفة وضعتها صديقتها «ليلى» أمامها؟

كأنّ صديقتها «ليلى»، هي التي ذكّرتها به

كانا في بدء مساء من أمسية «جدة»: الرطوبة تتصاعد مع حلول شهر يوليو، وبرج السرطان في منتصفه.. و«سارة» من برج النمر الصيني.

ـ سألتها ليلى: ألا ترغبين في الذهاب إلى سهرة صديقتنا «وفاء»؟!

ـ قالت سارة: عندي ملل... أريد أن أسافر.

ستسافرين بعد أيام.. دعي صديقاتك يجلسن معك، فأنت كنت مسافرة وقتاً طويلاً وتدّعين الآن الملل.

ـ فكرة... سنذهب معاً إلى سهرة وفاء.

- ما هي أخبار «فارس»؟

- «إيش ذكّرك فيه هالحين... أوه، سنوات مضت لم نتحدث».

- ما رأيك لو أتلفن له؟!

- تلفني... وأنا مالي.

جرّبت «ليلى» الاتصال بهاتف «فارس».

سرى صوته في سمعها هادئاً كعادته.

بدايات الكلام... تداولتها معه، وبدت متلجلجة تفتش عن موضوع تفتحه لتواصل معه الحوار، سألته عن رأي كتبه قبل أيام أحد الكُتّاب الذين حققوا حضوراً متميزاً ذات يوم من خلال إشراقة العبارة.

عباراته التي كان يجيب بها: مختصرة.. أُسقط في يد «ليلى».

سمعها تجادل صوتاً آخر معها في الغرفة، قالت له:

- صديقتي تسأل عنك!

- قال: وهل أعرفها؟!

- قالت: ألا يذكّرك حرف (S) بإنسانة ما؟

غاب صوته عن سمعها قليلاً.. حتى جاءها وكأنه يمتح هذا الصوت من أعماق بئر:

- قال: ياهـ... أما زالت تتذكر.... ولماذا تحرمني من صوتها؟

بقيت سماعة الهاتف على أذنه لحظات، كأن (S) مترددة، أو تُشعره بأن صوتها في هذه اللحظات يقطع مسافات السنين التي قاطعته فيها ليصل إلى سمعه.

جاءه صوتها أخيراً بعبارتها القديمة نفسها التي بدأت بها وصال انقطاعها الأول.. قالت له:

- «إنت ما مُتْ؟»

فاض الشجن من صوته وهو يرد على سؤالها: وها أنذا أعود هذه اللحظة للحياة من جديد.

وقف الصمت ثواني قليلة بين الصوتين، حتى سألها بشغف:

- أين كنت كل هذه القطيعة؟

- قالت بنصف ضحكة: «أبد... هنا وهناك».

- قال: كان من المريح أن تخبريني بقرار قطيعتك.. حتى لا يطول انتظاري لعودتك أكثر من أربعة أعوام!

- قالت: تذكرتك أكثر من مرة.. فكرت في أن أطلبك، لكنك غيّرت رقم تليفونك.

- سألها: وكيف وجدت الرقم الآن؟!

- قالت بنصف الضحكة: لمّا بغيت.... المهم، ايش أخباراتك، عامل إيه؟!

- قال: عايش كبندول الساعة يميناً ويساراً.

ـ قالت: على فكرة... أنا ما فكّرت في أن أتصل بك، صديقتي كان عندها سؤال لك.

ـ قال: وطرحت السؤال... فهل أنهي المكالمة؟

ـ قالت: لما أبغي أنا!

ـ قال ضاحكاً: لم تتغيري... ما زلت في استفزازاتك القديمة.

ـ قالت: وحشتني رسائلك إليّ.. تذكر يوم كنت تكتب لي في الصباح رسالة، وبعد الظهر رسالة، وفي المساء رسالة؟!... أكتبْ لي من فضلك، وإلاّ فما هو من فضلك.. أنا آمرك بأن تكتب لي، وتحبني في الرسالة مثل قبل سنوات!

ـ قال: مجنونة... هل تصدقيني وأنا أقول لك: إن عودة صوتك إلى سمعي أعادت إلى نبضي حيويته، وإلى خفقي شبابه وقفزاته، وإلى قلبي ذلك الدفء الذي طالما غلفه في تلك الأيام التي أحييتني فيها باحتوائك، وبتواصلك في ليلي ونهاري؟

سأكتب لك الليلة.. كلميني مساء الغد، ويمكن تلاقي تفاصيل أكثر!



لم تنتظر «سارة» أن يحل مساء اليوم التالي.. فقد جاء تليفونها لفارس في موعد الغروب، وصوتها يدفئ مسمعه:

ـ هل كتبت؟!

ـ قال ضاحكاً: وعليكم السلام، مساء الحب.

ـ قالت: أرجوك... كتبت، وإلاّ لأ؟

ـ قال: دعيني أمارسْ معك بعض استفزازاتك لي... لا لم أكتب.

ـ قالت: إذاً.. مع السلامة حتى تكتب.

ـ قال: إفتحي خط فاكسك في بدء المساء... ألم تسمعي عن: الحب بالفاكس؟

ـ قالت: ولو.... في عصر «تفجير» المعلومات.

ـ قال: المعلومات والقنابل معاً... إنه عصر تفجير متنوع، وأظن أن الذين يفجرون المعلومات هم وراء شحن ودفع وتحريض الذين يفجرون القنابل.

ـ قالت: و«صجُّونا» بالكلام عن السلام، ومباحثات السلام مع اسرائيل... في الوقت الذي أحسب أن كل انسان عربي صار يبحث عن سلام مع نفسه.. أحياناً يضطر الواحد منا لأن يكون سطحياً حتى لا يتعب!

إسمع يا راحتي النفسية.. أكتبْ لي من فضلك قبل أن أسافر..... في الليل.

وجد نفسه في اندفاعتها القديمة إلى «أوامر» سارة له، وتساءل:

ـ هل ما زال يحبها... أم أن عودتها المفاجئة بعثت حبه القديم لها من جديد؟

ومَنْ عرفهنَّ بعدها.. هل كُنَّ مجرد محطات؟

وهي/سارة... ماذا تشكل في نفسه حتى الآن؟

أسئلة مدببة تسددت إلى صميم نفسه من شروده وراء صوتها بعد إنهاء المحادثة الهاتفية بينهما... وكأنه بقي يعاني من التردّد خوفاً من «مزاجيتها» التي لا تستقر على حال.

بقي ساعة يفكر... حتى تسللت أصابع يده إلى القلم.. وأخذ يكتب لها:

- يا امرأة الزحام الذي يُضيِّع صوتي اليها:

والآن..... في عمق هذا الزحام: ماذا أنتظر؟!

هل أنتظر عصا الساحرة في حكاية «سندريلا».. وقد أضعت عينيَّ لكثرة ما فتَّشت عن «مقاس» حذائك أو خطوتك.. تلك التي تواجدت في الهروب؟!

هل أنتظر عودة الايقاعات المعبّرة، وأنا أقبع داخل أذن «بيتهوفن» الصمّاء؟

أم تُراني أنتظر ما صوَّره شاعر قال: «أنتظر مطر التاريخ في توهج المسافة»؟!

أنا لا يعنيني التاريخ.. لا تعنيني المسافة، بقدر ما أهتم بالمطر، وأبحث عن التوهج.

هل أنتظر «أرسطو» ليعطيني تأكيداً على أن أسنان المرأة أقلّ من أسنان الرجل... هو الذي نسي أن يتفحص فم زوجته الأولى،

وأسنان زوجته الثانية.. وعاش عصراً قاعداً على ألوان من الأوهام والظلال... مثلي؟!

كل الحقيقة في حياته كانت: تعاسة بالمرأة، لأنه لم يعرف عدد أسنانها!!

آه يا..... أنتِ: ماذا أصف وأكتب؟

المساء: جمجمة آدمي.. مرسوم عليها: الأنف، والشفة، والأذنان... من دون عينين!

هكذا تصبح الأشياء: غالية، وواضحة.... ثم: تافهة!

وهكذا وقفت في منتصف هذا المساء، أنادي على «عروس الخرافة»، عليك... بمسمع منك!

أود أن أكتب.. أن أغازل.. أغازلك أنت.. أستفزّك.. أهامسك.

أود أن أغازل «عروس الخرافة».. أستفزها.. أصفعها.. أقبّلها!

أرغب ـ الآن ـ بأن يصدر عني تصرف.. قد لا يُقرّه الآخرون.

لأعترف... لا بد من الاعتراف في هذا الزمن الرديء: بأن الناس سيزرعون احتجاجاتهم في حدقتيْ عينيّ، ويديرون ظهورهم: مقهقهين.. آخذين بمبدأ، أو قاعدة: لا شيء يهم!

فما هو الشيء المتبقّي... الذي صار يهم؟!

أرغب أن يصدر عني تصرف يُزيّن وجهك ـ أنت حبة اللؤلؤ/ الأغلى.

لأعترف: بأن الحب هو... جنوني، وسيفي!

شراييني تيبّست، وما زلت منقوعاً تحت النجوم: أنتظر.

ولكن!! أنتظر ماذا؟

أنتظركِ أنتِ... من عهد: إرم ذات العماد، من أصداء أشعار مجنون ليلى!

أبحث عن التوهج.. أتابع سحابة لا تمطر، تفترش ضياء القمر والنجوم. فلا التوهج يتفاعل، ولا الغيث ينسكب.

لكني مجلود بأفكاري.. متمنطق بالعالم حول نفسه.

و... ماذا عن: خوف المرأة من الرجل، وتمردها عليه؟!

و... ماذا عن: انجذاب الرجل إلى المرأة، ثم... قسوته عليها؟!

و... ماذا عن: ذلك التوحُّد بين المرأة والرجل الذي انحصر ـ فقط ـ في.... اللحظة؟!!

... هل ترينني ـ يا حبة اللؤلؤ ـ مغذّاً في التهويم حتى التيبُّس؟

في انتظار الانقباض النفسي ـ سمة هذا العصر! ـ تختفي العيون من وجهها.

ولماذا أكتب لك... حتى الانقباض؟!

أكبر من الارتياح اليك وبك. أعمق من توقع «فهمك» لي.

في انتظار «العيون». عيناك: أجمل ما يشدني إلى أنثى... تتوقف ريشة الرسام، ويجف حبر الشاعر، ويبحّ صوت الشادي.

تزفُنا أشواقنا إلى الحب والفرح.. ثم ما تلبث عقارب الساعة أن تنسحب إلى مكان مليء بالاختناق، كزجاجة طافحة بالرمل.

وليت الناس يتوقفون يوماً واحداً عن الضحك المصطنع، أو الابتسامة الصفراء... لأنه ضحك فاسد، مليء بالأصداف والصدأ!

حتى العشق بارد... لأنه تحول عند الكثير إلى حافز، يخضع للمتناقضات في حياة إنسان هذا الزمان... ولأنه عشق «معلب»، نفتحه في الليل إذا ما ترددت الأصداء المتناقضة في داخل النفس وخارجها، ونقفل عليه في النهار.. لنجري وراء الوراء، ذلك الذي يحدد: مستوى معيشتنا، ونسبة الترف في استخداماتنا المالية.. بينما يزداد في كل يوم تفريغ الوجدان من العواطف الصادقة، وتجفُّ العقول من فكرة الخير والمحبة للناس!

ولست مبالغاً.. ولكني متأثر بواقع العصر القاسي.

هل هي التعاسة في دروب المدينة كلها.. أم هو الحزن في دهاليز العبرة»؟

هكذا جعل مني صديقي: بطلاً لرواية غابريال ماركيز: **الحب في زمن الكوليرا!!**

أعترف لك: صرت في خصام مع نفسي بعد قلبي.. والكثير في هذا الزمن: صار يزيّف صدق الخفقة، ويشرخ التوحد باسترخاء لهفته.

صرتُ أردد في وحدتي وتوحُّدي مع الحزن النبيل: أسىً

عظيم حين يشعر الانسان بأنه وحده.. قلبه يتيم، وأيامه باردة!

كان الأسى الأعظم ـ يا حبة اللؤلؤ ـ أن تخترقني: مسمارية ذلك الموّال:

ـ «قد كنتُ أحلم قبل اليوم في سِنَةٍ.. فصرتُ أحلم منذ اليوم: يقظانا»!

تُرى... هل أقدر على أن أحلم بغيرك، أنت الأنثى/ الخرافة؟!

وهل أحلم: بأن لا تحلم بي امرأة غيرك.... لأنني لا أريد سواك؟

أم أحلم: بأنثى شاسعة من عصر «قيس وليلى».. تقتحم، وتشع في صدري كالصباح الجديد.. فتُبلسم الجروح، وتذيب... الماضي؟

كم مرة نحلم ـ يا سيدتي ـ فيستمر الحلم: حُلماً؟

أنا أحب...... لا أستعبد.

أنت: استعبدت قلبي.. لكنك لم تحبِّيه!

لقد حاولت أن أصغي... فطغى الضجيج على الإنصات.

لقد حاولت أن أرى.. فازدحمت آلاف المشاهد والصور، واختلطت الملامح والخطوات.

لم تعد الكلمة التي تُكتب أو تقال، أو حتى تصرخ: هي العطاء الحقيقي لصياغة فكرة جديدة للحياة... أصبح كل عطاء

الانسان: أن يكرس أحلامه ليكبر فوق الآخرين، بعد أن كان الانسان يكبر بالآخرين... بالتعاون، وبالروح، وبشَمْل الأسرة، وبروابط القربى، وبقيمة الحرية!

أصبح كل إنسان ـ وحده ـ يتحرك ما بين المسافة والظل.

حزنت كثيراً.. حينما كان صوت شاعر في سمعي يردد:

ـ «إنني شاعر.. أتحرك ما بين المسافة والظل»!

⊛

و.... بعد، يا لؤلؤة القلب:

هل أواصل البوح لك، وأنا الذي أشعر بتدفق معك وإليك... أم (أنظَم) فلا وقت للهدهدة في هذا الزمن الطباشيري؟

عليك السلام والأمان.. في زمن التفجير!

# الفصل الرابع

## قمة المعاناة

هذه الليلة.. لم تكن «سارة» تنتظر أحداً... لا رجلاً.. لا همسة حب.. لا نداء من قريب بعيد، ولا حتى معاكسة هاتفية مما استشرى في سلوكيات مجتمع أهلها الجديد!

فقط... كانت تشعر بأنها تبحر فوق مياه هادئة الموج، تُجدّف ببطء، والليل من حولها صامت لا يعيد اليها أصداء تجديفها.

- تساءلت: هل حقاً عندما تموت قضايا الانسان.. تموت معها خفقة الحب؟

ولكن... من قال إن قضاياها ماتت، ربما بدأت قضاياها الأكبر.

كانت رسالة «فارس» تتنقل مِن يدها اليمنى إلى يدها اليسرى، وتعيد قراءتها وتشرد بعيداً... إلى فارس، وبعيداً عنه.

- سألت نفسها: لماذا تذكرته الآن، ولماذا تحرضها رغبة ضوئية لأن تكتب إليه... وحده؟

ربما لأنها عايشت الهدوء مع نفسها بعد لحظة طلاقها من زوجها الأول.

الآن ـ بعد أكثر من عامين ـ لم تجد في نفسها ذلك الزلزال الذي (نخعها) من عمقها وأضرم في قلبها: نيران العشق أو جنون الحب.

ربما ـ ثانية ـ لأنها وهي توشك على وداع الثلاثينيات من عمرها، صارت تكثر أسئلتها وتتفرع دروب خوفها، لأن التجربة في أبعادها ستكون ذات دلالات إنسانية تتوافر فيها القناعات أكثر مما هي عاطفية/ غرامية!

لكنَّ «فارس»: طرأ على خاطرها... ومن زمن كان هو قد انتشر في البال وترك فيها بقايا منه حتى الآن.

ـ ولكن... كيف ستراني الآن؟

كأنَّ «فارس» أمامها وهي توجه له هذا السؤال عبر تحديقها في سطور رسالته.

ولو رآها: فجأة، صدفة، غفلة... ما هي حركته الأولى؟

هل تراه يتفحصها مستعرضاً جسدها الممشوق الفارع الذي ما زال «ميعبساً» ـ كما كان يصفه أمامها دائماً ـ ويندهش قائلاً بضحكته:

ـ كيف تحافظين على رشاقتك؟

هل يسألها مثل كل مرة: أين تسريحة شعرك القديمة... لماذا تقصين شعرك، ألم أُنهك عن ذلك؟

ولو رأته هي.. من دون صدفة، ولا غفلة، ولا فجأة، لأنها أرادت وسعت إليه... فكيف ستسقط نظرته الأولى عليها، وكيف ستعاملها عيناه بالنظرة الأولى؟

هل ترشُّ نظراتها بعبق الذكريات وتلك الأيام الخوالي.. يوم بذرا جنون الحب معاً في برودة الأيام، فأشعلاها وركضا ليلاً، وحَلُما نهاراً؟

هل تتحسس «بقايا» من حبه ذاك، هي التي لم تحافظ على نعمة حبه لها.. أم لا يهمها في هذه اللحظة، بل هي تهتم بما آلت اليه سحنته، ونفسيته؟

ذات يوم - قبل أكثر من عام - سمعَتْ أنه كاد يموت بعد أن تعرض لحادث.

همست كأنها تحادثه: يا الله... إنني لا أكرهك، بل أعبّر عن شدة حبي لك.. فلو أنك انتقلت إلى رحمة الله، لأصبحت جزءاً هاماً في ما تبقى من عمري.. لا تبرحني أبداً، وأسترجع أمسياتنا الأجمل والأكثر جنوناً وحلماً وسفراً.

يوم علمت بما تعرضت له.. لم أشعر بذلك القلق الذي أصاب أهلك وأصدقاءك في عصر ندرتهم، ولكني أردت أن أقول لك وتمنيت أن تسمعني: كان من المفروض أن تتعرض لمثل هذا.. فأنت لا تتوقف ولا تلتفت حولك، كأنّ الحياة لديك: موعد هام، ومحدد، وقصير جداً!

يا هـ... إنها ما زالت تذكر: كانت تطلب منه في لحظات امتلائها العاطفي أو الغرامي به.. أن يؤجل موته، لأنها تحبه!

تشعلها لحظات معه.. فتتبلور أمامه: صادقة شفافة وبلورية المشاعر، برغم أنها تعرف رأيه عنها في هذه النقطة بالذات، ومما كان يقوله لها:

ـ (أنت لا تحبين رجلاً لذاته أو لصفاته.. بل تحبين ذاتك أنت فيه، بكل ما يتعمَّقك من أنانية ونرجسية )!

واليوم ـ بعد قطيعة دامت سنوات أربع ـ اكتشفت أنها: لا تكرهه، لكنها أرادت أن تلغيه من ذاكرتها.. أن تقلع غرسته من تربة أيامها.. أن تجعل شجرته تجف في حديقة عمرها وتشيخ وتسقط حتى تموت جذورها.

كم هي قاسية في هذا الجانب الذي كان يزعجه من جنونها.. وكان يطلق عليه: قسوة متناهية!

لم تعد تريده في حياتها أبداً.

إنه لم يحطم حياتها.. هي المسؤولة عن كل ما حدث مما اعتبرته أمها وأخواتها: تحطيماً لحياتها حين قررت أن تنهي الرباط الزوجي بعد معاناتها في عشرتها مع زوجها.. من إهمال لها، وغرور، وانشغاله بصفقاته ورحلاته الدائمة والمتلاحقة!

حاولت عدة مرات أن تسترد زوجها إلى ما يسميّه الرومانسيون في العصر الماضي: «عش الزوجية أو الحب»... لكنها اكتشفت: أن زوجها ذاك كان يقيم عشاً مؤقتاً في كل مكان يسافر اليه، وقد كثرت أعشاشه!

كانت أمها تصرخ في وجهها، حين علمت بدخول «فارس» إلى ليالي ابنتها ولهفتها:

- هذه خيانة منك يا سارة... فكيف تطيقين ذلك؟!

لذلك... كانت تطيل التحديق في وجه «فارس»، ثم... يرتفع صوتها مقهقهاً، وتمتد اليه يدها متوددة في قمة شراسة أنوثتها معه، وتناديه:

- تعال إلى صدري.. يا نقطتي السوداء، اللامعة بالضوء جداً.



كانت فكرة مجنونة.. لكنها ارتكبتها كجريمة، حبكت خيوطها، وعرفت ماذا سيحل بها، وربما توقعت: ماذا سيلاقيه/ فارس؟!

لم تشعر بالخوف عليه حين خطّطت.. لم تفكر في مصيره، وماذا سيحدث له لو افتضحت قصتهما!

كل ما ركّزت تفكيرها عليه وفيه، كان ينحصر في هذا السؤال:

- كيف تقتل هذا الرجل/زوجها، الذي قبرها بالحياة، فتجعله يمشي ويتحرك ويعيش حياته: مقتولاً؟

لا يخطر بالبال أنه الانتقام.. بالعكس، ليست ميّالة الى الشر كما هي طبيعتها ونفسيتها. لكنه التمرد ومحاولة كسر الطوق الذي سجنها في إطاره عدة أعوام، أثمرت طفلاً كبر اليوم وفي عيونه ما يرعبها حيناً، وما تتحاشاه أكثر الأحيان.

فهل هي سافلة... أمْ زوجة جريحة بالإهمال من زوجها.. لعقت دماءها التي تنزف، وقامت بعمل أقسى من الاغتيال، أو القتل الجسدي.

هكذا تعاملت مع وجود «فارس» في حياتها: أحبته وقتاً قصيراً، وسريعاً، ومكثفاً، وعاجلاً... كأنها تخاف أن تموت فجأة، أو أنه لن يعمّر كثيراً.. حتى إذا عرفت خبر الحادثة له.. احتارت لحظتها في تعاملها المتباطئ مع الخبر: هل تبكي، أم تضحك! هل تصفق لتوقعاتها عنه، أم تزجرها وتكرهها، لأنها تريده أن يعيش ويحيا!! لا تريده أن يموت الآن، برغم ما حدث من فراق بينهما.

تريده أن يواصل حياته بإصراره الذي تعرفه فيه.

كانت في زمن صفائهما، أو «غيّهما».. تطلب منه برجاء تُسمِّيه سخرية، أو ترفاً في المشاعر والتعبير، فتقول له:

ـ من فضلك.. دع موتك يتأجل قليلاً، حتى أسأم منك، وبعد ذلك لا يهمني إن ودّعت الحياة، أو بقيت... لكنك ستكون في حكم الميت في مشاعري.

الآن... هل يسألها بمبادرته التي تعرفها فيه: «هل تعتبرينني ميتاً في وجودك، أم حياً»؟

ـ تهمس: (لا أدري صدقني... أشعر بك بعيداً جداً جداً، كأنك خارج حدود عالمي، أو كأنني في كوكب آخر لا يتلاءم مع كوكبك... لكنني ـ فجأة ـ اشتقت إليك، أو إلى الكتابة لك: عني وعنك!!

لا تتهمني بأنني كبرت، شخت... لم أزل في شموخ أنوثتي وكبريائها.

كنت أطلب منك في الزمن الذي أحبك فيه، برجاء حار: أن لا تموت... وإذا أردت ذلك، فيكون بعد أن أكرهك!

ستسألني بالضرورة، أو بتوقّعي لأسئلتك التي خبرت محورها: الآن... هل تكرهينني)؟!

هي لا تعرف الكراهية، وأيضاً... لم تعد تعرف قلق الحب، لعلها تقتنص فرص الضحك، والمرح، والانطلاق، والسفر بعيداً بعيداً.. لكن قلبها: وادع، راكد كالبحيرة النائمة!

حتى زمان التسلية الذي كانت تقول له عنه: إنها تخافه.. لم يعد هو الزمان المثير، ولا المخيف.. ربما كان هو الزمان التافه، أو الذي يضخّم تفاهة ممارساتنا، حتى العاطفية!

❁

أمسكت القلم.. وبدأت تكتب له رداً على رسالته:

- «عزيزي فارس:

ما معنى التسلية الآن؟

أنت... هل عندك نَفْس؟

لحظة من فضلك... لا تظن أنني محبطة.

لكنّ أسئلتي تراكمت، وفاضت... ولقد تركت الأسئلة من دون أجوبة، وحتى من دون حرص على ايجاد أجوبتها... لماذا؟

ألسنا نعيش، ونمشي، ونتكلم، ونسهر، ونمرح؟

إذاً. . . لماذا نُقيِّد حياتنا بمثل هذه الأسئلة التي صرنا نجرجرها خلفنا كالأصفاد والسلاسل؟

ذهبت إلى البلد التي تكرهها أنت. . في أقصى الأرض.

طرأتَ أنت على خاطري هنا ـ في بداية مساء، وأنا أشاهد لقطة من برنامج في التلفاز ـ فقلت: تُرى. . لماذا أنت تكره هذا البلد/ القارة؟

ألا زلتَ متمسكاً بالمبادىء، والمثل، والمواقف، والوطنية؟

يا هـ. . . . هل تذكر يوم قرأت عليك أبياتاً من قصيدة، سميتها أنت (تقدمية) قبل أكثر من عشرين عاماً، فقلت لي:

ـ لو كنت أمامي لأخذتك في أحضاني. . لكنّ الهاتف يعيقني، مثلما الخوف يعيق الكثير عن كلمة الحق، والحقيقة!

هل ما زلت مجنوناً بالمبادىء يا صغيري الشايب؟

أحاول أن أبلور كلمة «أحبك» منك لي. . وكنت تقولها دائماً في سمعي وأمامي. (في الفاضي والمليان). وكانت تسعدني، وأشعر بصدقك فيها، وأتردد أن أقولها لك الآن بنفس نبرة صوتك ودفء الكلمة: وحشتني؟!

صحيح. . . هل وحشتني حقاً؟

مضى وقت طويل لم نلتق فيه، بل. . . لم يُصادفني وجهك في أي مكان، فهل تغيَّر وجهك منذ أن عرفته؟

كم أتمنى أن أراك الآن أمامي، فقط... لأُرضي فضولي لا أكثر.

اضحك.. ستقول عني: ما زلت كما أنا.. لم أتغير، كلماتي اللاذعة، وتعليقاتي الاستفزازية، و.... قلبي الأبيض.

حقاً... أنت الوحيد الذي تعرفني جيداً من داخلي، وكثيراً ما خفت من تحليلاتك، واستنباطاتك عن خطواتي، ولكن هذه الميزة عندك، تدل على حميميَّتي فيك، وحميميتك في نفسي، وتمازُج روحينا.

تصور... حتى السخرية افتقدتها في تعليقاتي، ربما لأنه لم يعد لها طعم.

صديقاتي: صرن يتّهمنني بالشرود، وبالبرود.

قلتُ لواحدة من اللواتي يحرصن على تسقّط أخباري ذات يوم:

ـ إنني أحب رجلاً رائعاً جداً، وتعتبرينه من عامة الناس، وسأتزوجه يوماً ما.

نظرت إلى ملامح وجهها، فوجدتها تغيّرت.. كل ألوان الطيف انتشرت على قسمات ذلك الوجه: غيرة، أو حقداً... وقد عرفت أنها أمضت أكثر من عام وهي تحاول إقناع أهلها بالموافقة على اقترانها بشاب يصغرها كثيراً، ومن عائلة أقل بكثير من مستوى عائلتها الاجتماعي والمالي... من دون أن تفلح!

حتى عندما تزوج ذلك الشاب بامرأة أخرى في سنه.. استمرت في حلمها تنتظر أن يعود إليها.

ضحكتُ سخرية من الحياة، لا من صديقتي.. وتذكّرت أننا حلمنا معاً - أنت وأنا - ذات ليلة، ربما أسميها (يتيمة)، لأنها ما تكررت في روعتها.. قلت لي فيها:

- حلمي.. أن يضمنا بيت واحد!!

وسرحتُ مع حلمك، وطاردني صوتك حتى استرجعني... فقلت لك:

- أنت رجل مجتمع، مجالاتك متسعة في الركض، لكنّ الفوارق الاجتماعية ما زالت تقهر التغيير، وحثل القرن العشرين!

كنت شغوفة جداً بأعمال البر.. أزور الجمعيات الخيرية في بلدنا، وأفتش عن الأسر المحتاجة والفقيرة في مجتمعنا، خاصة تلك التي لا تسأل الناس الحافاً.. لأساعدها في حدود طاقتي.

مرة بكيت أمام سيدة في الخمسين، كانت تقف أمامي وتشرح لي حكايتها مع أطفالها وزوجها المريض الذي يفتش عن عمل من حوالى نصف عام، ولا مورد لديهم!

كانت يدي - بعفوية - تدخل إلى الحقيبة المعلقة على كتفي، وتخرج دفتر شيكاتي، فأنا لا أحمل نقداً كما تعلم عني، ثم... ما لبثت أن تنبهت: هذه المرأة لا تعرف طريق أي بنك.. فما بالي ببوابة البنك، وطريقة صرف الشيك!

- قلت لها: عودي اليّ غداً في هذا الموعد وأنا أنتظر أمام بوابة هذه الجمعية في سيارتي... وعادت وفرِحت بل طفرت الدموع من عينيّ وأنا أسمع صوتها يلاحقني بدعواتها من خلال بكائها أو صوتها المخضّل بالدموع.

هل رأيت؟!... لقد فررت في اليوم التالي من البلد كلها.

قد تتهمني بنعوت عديدة، لا بأس... طرت إلى أوروبا لأنسى منظر تلك المرأة!

رد فعل عكسي، أو.... جبان!!

أو... لعل مجتمعنا صار يعاني اليوم من الانفصام في الشخصية.

لا عليك... فالناس يموتون بأتفه الأسباب، بحوادث السيارات التي صارت جنوناً.. بأسباب ليس من بينها: الفقر. وانظر حولك!... وهم يموتون الآن بالجوع، أو بالتجويع العالمي المتحد(!!)، والجوع ليس سببه: شح الطبيعة، بل شح الرحمة من القلوب، وتفشّي الطغاة في العالم.. حتى صرنا نسمع وصفهم بالمصلحين!

حتى الطغاة ـ يا حبيب الأمس ـ يتحدثون اليوم عن: الحرية، والديموقراطية، والعدل، والحق!

أرأيت... لا مفر من الجنون أبداً!!

أشتاق إلى أن أقول لك في هذه اللحظة: أحبك (!) ليس لأنني أحبك بالفعل بل لأنني ظمأى للحب بذاته.

مرة قلت لي أيضاً في قراءتك النفسية لذاتي: أنت لا تحبين رجلاً لذاته بل للحب فقط!

بعدك.. عرفت من هو أصغر منك سناً، بل حاولت أن أغازل (طليقي) في سري، لأقتنع به، وأسمح له بأن يعيدني... ففشلت.

هل رأيت ترفاً أكثر قهراً، وضنكاً، وضغطاً عصبياً، من ترفنا الذي نعيشه كل يوم في هذا العصر التجليطي: عصر تفشي الكذابين، والمنافقين، والمدلّسين؟

دعك من اشتياقي، أو من رغبتي الآنية في التصريح بكلمة: أحبك.. لك وحدك!

أرغب في أن أحكي لك.. أن أبوح ـ كما هي عبارتك دائماً ـ أن أفضفض.. فأنت الوحيد الذي استحوذت على هذا الحق (فيني) من سنوات طويلة.

غيرك.. لا أقدر على أن أمنحه هذه الخصوصية، وبرغم ذلك فأنا لا أجدك أمامي الآن.. وهذه مشكلتي معك منذ أول يوم عرفتك فيه، فأنت مرتهن بمناخ اجتماعي... وصرتُ مثلك بعد ذلك، ولكننا نحتاج إلى بعضنا البعض في لحظات هامة، فلا يجد أحدنا الآخر.

كم هي قاسية هذه البروتوكولات!!

لا تضحك... من يقرأ كلمتي هذه ـ البروتوكولات ـ يتهمني بخروجي عن العادات والتقاليد العربية، وربما يرمِني بالإباحية في عصر الإرهاب حتى ضد الفكر والرأي.. وهي التهمة السهلة في عصر الاتهامات السائلة والمسددة رصاصةً.

حقاً.. أريد أن أحب!!

أن يُسمعني «رجل»: كلمة حب من بين أضلعه تخرج، وليست من لسانه، أو حنجرته.

فهل بلغت كلمتي/النداء ـ أحبك ـ حشاشتك، وعمق روحك؟

منذ متى لم تسمعها؟!

لعلك ـ كرجل ـ تسوّقها، كلما التقيت بأنثى حلوة!

نعم.. أعرف أن هذه هي التهمة الدائمة، الثابتة التي تحاول كل امرأة أن تُلصقها بجميع الرجال!! ولكن.. قل لي: ألا تفعلون ذلك أيها الرجال/السادة؟

آهٍ.. كم أتوق الآن لسؤال منك، كنت تردده بين الفينة والأخرى على مسامعي، فتقول: ما أخبار «مزاجيتك»؟

صدّقني... أنت كنت على حق، لقد أتعبتني مزاجيتي كثيراً، خاصة بعد اختفائي من حياتك، وإصراري على مقاطعتك للأبد، بل على قطعك من ذاكرتي، ومشاعري!

لكن... نعم «حيل الله أقوى». وقد كان ما كان، حتى لم يعد عندي مزاج لإنعاش مزاجيتي!

إنها فكرة مجنونة أن اكتب إليك الآن... لقد أفرغت هذه الشحنة التي كادت تهوي بي إلى قاع النفس، وربما ترميني في الاكتئاب.

لا أريد منك رداً... بل أنت لا تستطيع أن ترد، لأنني قصدت أن لا أكتب لك عنواني اليوم ولعلك ستقرأ الرسالة على أجزاء، أو ترمي بها على سطح مكتبك عدة أيام، ليس خوفاً من نفخ رماد نيران حبك القديم لي.. بل لأننا ـ أنت وأنا ـ قد تغيرنا

كثيراً كثيراً، وكأننا قد جئنا إلى عصر لا نعرفه، أو من كوكب آخر!

وأنا.. إن لم تكن كارثة الطلاق في بدئها، وراحة الطلاق في تمدده بعد ذلك.. قد نالا من عمق نفسيتي ورؤيتي للحياة وللأحياء.. فإنني لست أكثر من امرأة صارت تروق لها الفرجة، والاسترخاء البليد.

أرجوك.. عدني بأن لا تفكر في كلمة واحدة من كلمات هذه الرسالة بعد أن تطويها... حتى التفكير لوّثه العصر الجديد!».

# الفصـل الخـامس

## السلام مع النفس

بعد أن أنهت كتابة رسالتها إلى «فارس».. احتوتها لحظات حزن وتأمل.

أخذها الشرود بعيداً إلى شيء غير محدد. لا تدري، ربما كانت أشياء كثيرة.

هو «التبليم» إذاً... لازمها كحالة، أرادت أن تنفكَّ منها وعجزت.

الليلة ـ في منتصفها ـ ستبدأ سفراً جديداً، وما زالت حالة «التبليم» تلازمها.

دعتها صديقتها إلى مشاركتها وصديقاتها سهر النصف الأول من الليل في بيتها.

وفي وسط صديقاتها... لم تشعر بتحسن، بل تضاعفت الحالة لديها حتى الرغبة في البكاء... فآثرت الانسحاب والعودة إلى بيتها حتى لا يصبح دمها ثقيلاً عليهن، ولتستعد للحظات السفر.

في بيتها، بكت.. تدفقت دموعها.

ليس هناك سبب تدريه، هرعت إلى الهاتف، وطلبت «فارس»:

ـ سألها: ماذا حدث لصوتك.. هل تشكين من زكام؟!!

ـ أجابت وهي تحاول الضحك: ربما... هو زكام نفسي، لقد كنت أبكي يا فارس.

ـ قال: ولماذا البكاء؟

ـ قالت: صدقني لا أدري... البارحة بكيت فجأة بلا داع، والليلة شعرت بالاختناق حتى بكيت.

ـ قال: ربما لأنك مسافرة.. ستغيبين فترة أخرى عن أهلك وعائلتك ووطنك.. وربما كان هو الانتقال الجديد في حياتك!

ـ قالت ضاحكة: باسم الله عليّ.. تقولها كأني سأنتقل إلى الدار الآخرة!

ـ قال: لعلها «النقلة» الجديدة بعد كل النقلات التي تشكلت منها حياتك.

ـ سألته: إيش درّاك... أنت يا أخي ما زلت مشكلة في حياتي.. ليه تقرأ أفكاري وعمري؟

اسمع... صحيح أنا أفكر في برمجة حياتي الجديدة، لقد سبق لي أن تزوجت، وصرت أماً، وربيت، وأحببت.. والآن: العيال كبرت، رتّبت حياة ابني، فماذا تبقّى؟.. طبعاً أنا مَنْ تبقّى..

أحياناً اسأل نفسي: هل أنا أنانية؟

- قال لها: بعد كل هذا لن تكوني أنانية.. بدليل: أنك أجّلت ترتيب رغباتك الخاصة. كان زوجك أولاً ولم يعرف كيف يتعامل معك، ثم كان ابنك، والآن... أنت، و.. أنا!!

- قالت ضاحكة: «نعم!.. وأنت ليه تقحم نفسك في حياتي دايماً، يمكن بأحب رجلاً آخر».

- قال مغتاظاً: لا بأس... المهم أن تحبي، أقصد: تحبي أحداً غير نفسك!

- قالت: بتشتمني؟!.. لا بأس، لكنْ تعرف.. اكتشفت فيك حاجة جديدة لم تكن في طباعك القديمة اللي عرفتها... إنك أصبحت انساناً واقعياً/ مثلي. وهذا شيء جميل، على الأقل حتى تستطيع أن تتعايش مع بشر هذا العصر.

- قال: لا تفرّحي نفسك هكذا... واقعي في هذا الحوار معك، أقصد: أنني آخذك على قد واقعيتك..

- قاطعته: على قد عقلي يعني... أنت ما زال دمك ثقيلا.

- قال: ما زلت أمزح معك.. لكنَّ الحياة هي الأخرى متوقفة في جوانب منها.

- قالت: أنا أبحث عن سلام مع نفسي ومشاعري الداخلية.. أشعر الآن بأن حياتي بدأت «تِصْفى»... خلاص انتهت المقابلة الهاتفية، أودّعك لأني طالعة المطار بعد شوية.. يمكن أستخدم معك التسويف: سوف أكلمك من محل إقامتي، سأسمع صوتك..

ويمكن لن يحدث ذلك، ولا تكون أية «سوف» بيننا... مع السلامة.

❀

وضع «فارس» سماعة التليفون... كأنّ الشرود الذي أصاب «سارة» قد عداه.

كأنها ذهبت ـ كعادتها ـ ولن تعود. وإذا أرادت العودة فليس قبل عدة سنوات مماثلة لما سبق، و.... ترى: إلى متى يعيش، ويصمد في هذه الحياة أمام تحديات: ارتفاع ضغط الدم، وكوابيس الواقع المادي، والمتغيرات التي أخذت تُحدث الشروخ الخطيرة في بنية المجتمع من الداخل: السلوكيات، والوشائج؟!!

ليل آخر يتمدد الآن بين جوانحه... لم يعد له أنيس يهدهده في وحشة الليالي سوى هذا الانتظار لها، لصوتها، لخطها عبر الفاكس، ولسريته الشديدة معها من دون الآخرين، بل من دون كل شيء قد تتشكل منه حياته اليوم.

أمامه عبارة قالها «ماياكوفسكي» يوم قرر أن يختار بنفسه طريقة موته، بعد أن فرغ من أفراح الحياة العابرة، ومن أفراح الكفاح التي جُيِّرت لغيره... فقال يومها:

ـ «الحادث أصبح منتهياً، وزورق الحب تحطم على صخور الحياة اليومية».

«فارس»... لا يدري الآن: هل تحطم زورق حبه مرة أخرى؟!

«سارة». . هي التي تعرف وحدها، وتقرر له هذا المصير.

وسرت إليه عدوى حالة «سارة» قبل سفرها. . . عنده رغبة شديدة للبكاء، وهو ـ أيضاً ـ لا يدري السبب.

تذكَّر بيت شعر لنزار قباني، فأخذ يهمس به:

ـ «أنا شجر الأحزان. . أنزف دائماً

وفي الثلج والأنواء. . أُعطي وأُثمر»!

ربما كان بكاؤه. . لأنه استغرق في بعض الصور الوطنية التي أعاد قراءتها اليوم عن وضع أهله العرب. . عن تمادي إسرائيل في اللعب بمصير العرب، فهي التي توقف مباحثات السلام، وهي التي تستأنفها، متى أرادت، وبأمر منها. والعرب ينصاعون، ويهرولون. . . كأنّ الكرامة العربية تحولت إلى مجرد أسطورة.

«كأنّ المروءات أطرقت. . وموطن آبائي: زجاج مكسَّر»!

ما زال يستذكر ذلك الشعر الذي حفظه يوماً، والذاكرة لم تفقد تفاؤلها بالغد:

ـ «هُزمنا. . وما زلنا شتات قبائل

تعيش على الحقد الدفين، وتثأر»!

الصورة مجسدة في وقائع، وأحداث. . بل وفجائع: العراق والكويت، البحرين وقطر، السودان ومصر. . . أمثلة، أمثلة، أو كما قال «عبد الصبور» قبل أن يموت قهراً بالأزمة القلبية:

ـ «حزن تمدد في المدينة

كاللص في جوف السكينة

كالأفعوان بلا فحيح».

تدفق الشعر على ذاكرة «فارس» بكل ما فاض من آلام النفس وأحزان المعاناة الأكبر:

ـ «يا صاحبي..

زوّق حديثك.. كل شيء قد خلا من كل ذوق

أما أنا.. فلقد عرفت نهاية الحذر العميق

الحزن يفترش الطريق»!

يخبط «فارس» رأسه حتى يفيق من هذا الاستذكار الموجع الذي يصور واقع الحال.

إنه مدعوّ إلى حفلة الضحك التافه غالباً، المنتشر المشروع!

من الأشياء التي يظن أنه يختلف فيها مع هذا الجيل الجديد ـ وقد دعس الأربعين ـ هو: الذوق، وحسن الاختيار.. بدءاً من الذوق في الموسيقى أو الأغاني، ورأيه: أنه لم تعد توجد في هذا العصر: موسيقى، بل أجهزة وآلات.

تأثر نفسياً من شباب هذا الجيل الجديد.. يكاد الأب لا يرى أحداً من أبنائه يتغدى معه وأمه أو يتعشى، ويجد ابنه الآخر نائماً طوال ساعات النهار وحتى ساعات الليل الأول.. يستيقظ بعدها وينفك يهرول إلى عربته وأصدقائه حتى بعد منتصف الليل.. ويجد ابن صديقه في شكوى أبيه من إدمان الابن على الهاتف لا يبرح يده ساعات طويلة!

فهل هو جيل: تافه، أم معطل، أم عاطل، أم يفتقد التوجيه، ولم يجد القدوة؟

ماذا يفعل هذا الجيل.. هل هو باق: يحدق في سقف الغرفة؟!

هل يقضي ساعات الليل سهراً.. يمزق ساعاته الأولى في الشوارع والأسواق التجارية، وأماكن النزهة (البريئة) بنظرات جائعة.. ثم يمزق منتصف الليل في لعب الورق أو المغازلة بالهاتف!!

هكذا أصبحت العلاقات الأسرية الانسانية في أكثر البيوت... كأنّ هذا الجيل الجديد تحكمه أشياء تمتُّ إلى الرغبة أكثر، وإلى «الأنا»... أشياء مؤقتة لا ثبات فيها ولا ثبات لها، حتى الحب أو العاطفة الجميلة تحولت إلى مجرد: تفريغ شحنة لا أكثر.



تذكّر «فارس» يوم دعاه صديق يصفه، باللهجة الشعبية بأنه (مفلغم).. أي ثري موسر. وكانت السهرة خاصة. ما أن دخلها حتى شعر بالقرف في تلك المفاجأة بعد بقائه ساعة.. وقد مال عليه جاره يهمس:

- «لا تفتح فمك كالأبله... كل سهراتنا كده، وفي بيوت كثيرة. إيه يهمك أنت، إنبسط، وفرّغ، وروح بيتك نام!»

شعر بدوار يعصف به في تلك الساعة من السهرة.. قرف من نفسه، ومن واقعية الواقع أو العصر، ومن هذه (المباشرة)

المسددة كرمح إلى الأشياء التي يرغب بها الانسان، مع الأشياء التي يحرص على أن يحافظ عليها... كلتاهما: مقتولة وقاتلة في عمق نفس الانسان.

شعر - أيضاً - بأنه يحاول مَلْء ثقوب الذاكرة في قمة وهج الجراح، أو كما سمته كاتبة عربية: (وجع الشهوة)... فحتى الشهوة صارت تتوجع، لأنها بعدت عن ذلك الاحساس بالتعبير عن الحب في مباشرتها، ومعنى اللذة في العطاء التلقائي الذي يتفوق على تزوير اللحظة أو سرقتها.

الجانب الآخر في واقعية المادية، أو مادية الواقعية: إنَّ الشيء الوحيد الذي حرص البشر على إبعاده عن التزوير، هو: الكراهية... وذلك يتطابق مع عبارة «مونتيرلان»: (إذا كنت عاجزاً عنْ قتل من تدعّي كراهيته، فلا تقل إنك تكرهه... أنت تُعهّر هذه الكلمة)!

في الكراهية.. إما أن تبرز قوة الكاره، وإما أن يُسقطه عجزه.

وهكذا - أيضاً - يفتش البعض عن (الشيء المضبوط) في حياتنا.. فهل تبقّى شيء مضبوط؟

يشرد الفكر بـ«فارس».. ويقول في هذا التيه الذي يتمدد به:

- ربما إن الذي خسرناه هو الأكثر... لا يوجد أكثر من العمر الذي تمهره بَضمة.

ربما إن الذي خسرناه هو: الحب، وهو الأمان في ظل تغيير المجتمع والنفوس.

فهل يفجعنا الآن لو اكتشفنا - في الأشياء اللامضبوطة واللامنضبطة - أنّ الأبوّة صارت مزيفة، والبنوّة مزوّرة؟

زفر «فارس» من صدره آهة، وصمت... كأنه الخرس!!

# الفصــل الســادس

## لـؤلـؤة القلــب!

في قطيعتها الأخيرة... اكتنفه زحام عجيب، يندهش الآن من أنه لم يحاول الانسلاخ من: زحام النفس، مع ضربات القلب في هموم الحياة.

وكان هناك زحام آخر.. يتدافع فيه أمامه: بعض العاجزين والفاشلين الذين لا تقدر تربة نفوسهم على أن تُطلع زرعاً بل حنظلاً مريراً.

هذا الزحام.. كان «فارس» يظن أنه استسلم له ـ على غير عادته ـ لكنه ما لبث أن تمرد عليه وكسر طوقه، وهو يحلم بزحام آخر تمثل في اكتشاف درب يسلمه إلى دفء كلمة حب في عصر أولغ في الماديات، ويسلمه إلى حنان أنثى حبيبة، وإلى أمان صديق وفيّ لا يخونه، ولا يطعن في الظهر، ولا يتنكر.

عبرت أصداء صوت «سارة» أذنيه ـ في إطلالتها عليه ـ كأنها تشاركه هذا الهمس مع نفسه، ثم تشاكسه بطريقتها وتقول له:

ـ «طيب وأنا مالي يا أخ.. أنا تجاوزت غمّك الأزلي هذا من

اللي تسميها قطيعتي لك.. الآن صرتُ أكثر مرحاً وانطلاقاً، وأكثر كسراً منك لأي زحام يحاول أن يحوطني أو يأسرني»!

ارتسمت ابتسامة على شفتيه، وهو يتخيلها في هذا الحوار.

الله يا دنيا... كانت هي ذلك «الحلم» الذي هرب اليه من طوق الزحام، وغابت.... حتى انبعث صوتها من جديد: واقعاً.

يوم أن عاد إليه صوتها مجدداً، كان يصدّ اشتياقاً لها في صدره، أحاطته اسئلة قلقة عنها: ما هي أخبارها.. كيف صارت.. سعيدة أم ما زالت في دوامة معاناتها؟!!

دفعه الشوق يومها إلى المرور ببيتها.. وعبر متباطئاً أمام البوابة، كأنه ينادي تلك الشجرة التي ترحب بالقادمين من الباب الداخلي، والتي تستيقظ غالباً بعبقها في الفجر.. وكانت تراهما وتسمعهما.

- تساءل في نفسه: ترى.. هل أحدثت «سارة» تغييراً في نظام البيت من الداخل، ربما جاء مشابهاً للتغيير الذي حدث في داخلها هي/ صاحبة البيت.

إذا كانت هي قد تغيرت، والدنيا تغيَّرت، والمجتمع كله لم يعد ذلك القديم بقيمه، وعاداته، والتزاماته.. أفلا تتغير الجدران، والأسقف، والنوافذ، و... الأبواب؟

تذكَّر أغنية «فيروز».. وأدار محرك عربته، وهو يدندن: «آه... لِبْواب»!

هل ما زالت «سارة» تتذكر أغاني فيروز: سيمفونياتهما، أو سيمفونيات حبهما؟

تُذكّره «فيروز» دائماً بهذه الحبيبة «سارة»، وهي ملتحمة بداخله:

- (إلى متى تبقى سارة في هذا القلب.. ممتزجة بخفقه ونبضه؟)

يُذكّره صوت «فيروز» بحوارات ومواقف بينهما.. تلك الأيام الخوالي.

صدفة.. كان يفرز ذات يوم ما تقادم لديه من أشرطة الفيديو في بيته، بعد انتهاء صلاحية عصر الفيديو، ودخوله عصر الستلايت والغم الفضائي... وعثر على مسرحية لصباح اسمها: «دواليب الهوا». وأخذه الشرود إلى الأجمل من العمر والاحلام. كأنَّ صوت صباح يتردد في سمعه الآن، تغني تلك الأغنية من ألحان الرحباني، التي كانت «سارة» تغنيها له كلما أعلن لها عن موعد سفر له: (سفّرني معك.. على ها الطرقات)!

ياه... الذكريات، الأيام، الأبواب!

كم يتمنى الآن: أن يترنم في سمعها بموال من الشجن.. بكل حزنه النبيل هذا في داخله!

لم تكن «سارة»: مرحلة في عمره، بل: زمن، وحياة، وعصر كامل.

الآن... ظهرت من جديد. فجأة منحته دفء صوتها، فهل ستعاود الاختفاء من جديد؟

فكَّر - بمجرد احتواء سمعه لصوتها - في أن يعود إلى تعوده

معها، وطبيعته (القديمة): أن يكتب اليها... وكان يروق لها آنذاك أن تطلب منه الكتابة، بل «تتوسل» إليه أحياناً ليكتب لها. كأنها ـ في ذلك الزمان ـ قصدت إشباع غرورها من خلال متعتها بالحياة الأجمل في كلماته التي تجسد الغرور فيها، وتحلق بها إلى الحلم.

لكنه اليوم... كأنه هو الذي يرغب في أن يتوسل اليها، لترضى أن يكتب لها، وأن تقرأ ما يكتب..... فلماذا؟!

هل هو: متعب؟

ربما... وهي حضن الراحة الذي يُشكل انتماء روحه.

هل هو: شَجِن؟

ربما... وهي على امتداد كل تلك السنوات: توأم لشجنه هذا.

هل هو: عاشق؟

ربما... والحياة لم تُبقِ له الاّ الأصداء، ولا يقول: النهايات!

كم كتب لها هذا «الانسان» القابع في أعماقه وهو يغوص في فراغ «الوداع»، لكل ما يركض إليه بفرحه، وبخفقة قلبه، مثل ركضه إليها.. فيرتد إليه الفرح حسيراً، وترتد خفقة القلب: مثلوجة!

وهي ـ سارة ـ لعلها تركت من ذلك الزمان: بسمة «تاريخية» على شفتيّ فارس.. كالورود المجففة. وها هو الآن: وحده من دونها. بلا أنفاس عطرها، يتقطر خيالاً وتخيلاً لها، وتصوراً، وحساً. كأنه في لحظته هذه التي يستغرق فيها أبعاد الأيام الخوالي وأصداء صوت «سارة»: يستقبل أنفاسها!

كان الأعجب أن يتحول التشخيص هنا إلى: شخص!

والأعذب في واقعه هذا: أنَّ عذابه يبلغها، وتقابله بعذاب آخر.

⊛

أيقظه رنين هاتف بيته... جرّده من التخيل والذكريات، ورماه من جديد في الواقع.

قام بتثاقل ليجيب، فجاءه صوت صديقه «أحمد»، ما تبقّى له من زحمة الأصدقاء في زحمة عصر الجحود، وفقدان ذاكرة الوفاء. صديق أوحد يفضفض له عن همسات نفسه، وأسئلتها.. ويتعاطف معه وهو يقرأ «ملامح» صوت فارس في إصغائه له.

- سأله: ماذا تفعل الآن؟

- أجابه فارس: أحدق في الجدار!

- قال أحمد: هل أمرُّ بك.. نخرج لنتنفَّس أمام البحر قليلاً؟

فرِح بدعوة صديقه.. لعله يهرِّبه من هذا ال«فلاش باك».

وهناك أمام البحر.. سمع «أحمد» تفاصيل العودة الجديدة لسارة من فارس.

- قال له أحمد: «تعرف أن ما ربط بيني وبينك هو وعد مشترك من الضياع والإلفة والغربة، والشوق إلى التجوال.. أتحسس مشاعرك وكلماتك كرذاذ الجليد على سطح القلب، وأتخيلك هناك. تقف بملابس الصيف: متجمداً، مرتعشاً، لا تقوى حتى على نزع

الألم من صدرك، ولا حتى من محبرتك.

أسألك الآن: كيف انشقّت الأرض عنك هناك. عندها، وفاض الألم، وأصبح الجميع - فيها هي - يبحث عنك حيث يحبون أن يلاقوك؟!

هل هي التعاسة في دروب المدينة كلها.. . أم هو الحزن في دهاليز العبرة»؟!

هكذا جعل منه صديقه أحمد: بطلاً لرواية غابرييل ماركيز **الحب في زمن الكوليرا.**

وعندما أعاده صديقه إلى البيت في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، كانت شجونه تفيض منه، واشتياقه مندلعاً يتصبب لسماع صوتها.

ها هو الحلم يزهر.. حروفاً وكلمات منه.

زهر كلماته: يناديها.. يناجيها.

كلماته إليها تجسد له وجهها، وصوتها، وتنشر ضوءها في الظلمة من حوله... لحظتها تتشكل رسالته إليها: حقولاً تموج سنابلها بحبه لها.

جمع الأوراق البيضاء تحت يده، وأخذ في دفع قصائده: موجات في بحر جنونها... يناديها:

- (يا من سميتك/لؤلؤة القلب:

الوقت الذي يفيض بنا: حنينا.. نُغرقه في الانتظار، ربما.. حتى الموت!

دعيني ـ الآن ـ أقتربْ منك في مسافات سفرك البعيدة.

دعيني (أتخيَّلك): كيف صرت... هل تحولت حنطة جسدك إلى لون الشوكولاته؟

لكنك في أسفارك كنت ـ ومازلتِ ـ تهربين من الشمس والصحراء إلى: الأنهار والحدائق والعشب/الطريق... ليبقى جسدك ـ كما هو ـ حنطة التميز في سفرك!

أيّ جنون تبقَّى في عمق عينيك الواسعتين من عهد الهوى والعاشق الصبّ لك؟

اشتقت إليهما/عينيك... حتى رأيت وجهي ـ ذات ليلة ـ يختلط مع سوادهما العربي، ودمعة الوحدة.

أوه.... جحيم ـ يا لؤلؤتي ـ هذه السنوات التي عشتها من دون أن يختلط وجهي بسواد عينيك!

ستضحكين... ستجيبين: «صرتُ أحلى.. صرت أجمل... فأنا أنثى في مدخل الأربعين/ يحلب ثمري: عسلاً»!

كان «صدرك» الشامخ: عنواناً لرمز السيف... يستوقف رقبتي ليقطعها وأنا أوسدها هذا الصدر.

كيف حال «السيف»/ صدرك؟

لم أشعر بثورة الحياة ورقبتي تُقطع إلاّ بسيف صدرك.

ماذا فعلتِ بشَعْرك؟

المرة الأخيرة التي منحتني فيها «صبابة» من روائك لعطشي ـ

قبل سنوات ـ رأيت شعرك: قصيراً.. أقصر من كتفيك... كان غيظي شديداً، كتمته في صدري من دون أن ألومك على قص شعرك حتى ينتشي غرورك بعمل شيء يغيظني، أو يكسر رغبتي، أو يحطم ذوقي في شعرك.

رأيت شعرك كسنابل القمح البكر.... أذكر أن لونه الأصلي كان مغرقاً في السواد، لكنَّ نسمة السفر في أوروبا: غيرّت لونه بلون الناس هناك!

وتلك التسريحة التي رأيتها تاجاً على رأسك أول مرة... فأحببتك: هل تغيرت؟

عفواً.. لا ينبغي أن أسأل، فلماذا تبقى التسريحة ـ وحدها ـ بعيداً عن عبث التغيير؟

كنتُ حين أجلس أمامك.. اتأمل خصلة من شعرك تغطي نصف جبينك، ويضيء النصف الآخر في مزج بين الفجر والليل.

فهل بُهتت حنطة جسدك، أو زادت التماعاً وارتواءً؟.

هل تُظلل عينيك: رموش تمارس الحب بالأهداب المتكسرة؟

هل أبقيْتِ على ذلك الليل المخمَّر بأنفاسك الدافئة.. المعتَّق في اشتهاءات اللحظة التي تلد طفل الفرح من رحم النرجس؟

أين صرتِ؟!!!

حدثيني عن: مقدار تحطيمك لما ترفضينه الآن؟

دعيني أحدثك عن نفسي ـ قليلاً ـ فليس غيرك من يستحق أن أدعه يغوص في هذه النفس.

أعترفُ لك: صرتُ في خصام مع نفسي/بعد قلبي...

والكثير في هذا الزمان: صار يُزيّف الصدق، ويشرخ التوحد.

صرتُ أردد في وحدتي وتوحُدي مع الحزن النبيل بعدك: أسى عظيم حين يشعر الانسان بأنه وحده.. قلبه يتيم، وأيامه باردة.

ها أنذا أحيا بجانب الصخر... وأرحل فوق الموج/حلماً، لأغرق.

في السنين التي غيّبت صوتك ووجهك: ركضت أبحث عن المطر/أنت، و.... ضعت وأنا أفتش عن «صدَفَتك».

هاتفت نسمة ربيعية من خارج الطقس، فعبَرت بي.. حتى أسلمتني للأصداء!

رأيت قلوباً مسجونة في الغربة، وعقولاً ترشح تفاهة، ونفوساً غطّاها الصدأ.

لذلك... اندهشت ـ في مرورك الخاطف على سمعي ـ لأنك سألتني بعد كل هذا العمر، وكل تلك المعاناة: «إنت بتحبّني بجد»؟!

ياه.... كدت أسألك: هل فقدتِ ذاكرتك؟

لو سألتك.. أتوقع أن يكون ردك: «أيوه.. فقدت ذاكرتي».

عندما طلبتُ منك أن «أراك» بعد تلك السنوات المدرجة في الغياب.. كنت أطمع في: ذاكرة قلبك... كنت لحظتها: أحبك أكثر من تشبُثي بالحياة.

فأنتِ الحياة... في زمن الوفاء الصعب.

أنتِ لَمْ تعودي «حبيبتي»... بل أنتِ: حب الماضي، وأنتِ: خفقة القلب في هذا الحاضر.. تشتعل الخفقة بنداء صوتك، وتضيء بلمسة يدك ليدي).

❁

وحده بقي في هذا الميناء.. ينادي عليها بصوت الحنين، و....... ما زال الحنين: لظى!

يتّقد حنينه في حرقة أشواقه اليها. يتوجَّع خفقه في معاناته مع غيابها.

ينسكب أمله: صبراً، وترقباً لعودتها من رحلة الصيف الآخر التي طالت منذ بدأتها من سنوات ذلك الصيف الأول!

ـ قالت له في تلك السنوات: سأعود... فلا تدعني أجدك، لأنني لن أعود أنا.... فـ«أنا» كطبيعة الأيام والسنين!

ـ أجابها يومها: سأنتظرك.. وأراهن على اقتناص أول نظرة لك بعد العودة!

# الفصــل السابــع

## تفجيــرات الإرهــاب

فجأة... دوَّت أصوات التفجيرات في شارع العُليَّا بالرياض.

العالم كله... صار يقرأ عن شارع العليا، ويتعرف إليه، ويتابع خلفيات أخبار هذا الحدث الهام والغريب على هذا البلد وأهله.

هذا وطن.. عاش نعمة الأمن جيلاً بعد جيل، لم يعرف القلاقل، ولا المفاجآت المثيرة، ولا الجرائم المخطط لها بتنفيذ عصابات أو جماعات. عاش أهله يفخرون بالأمن والأمان.

كان والد «فارس» يحكي له عن جيله.. وقد كان صاحب متجر واسع معروف، يبيع كل متطلبات العطارة.. لم يكن يقفل أبواب المتجر إلاَّ في موعد إغلاقه ليلاً بعد صلاة العشاء بساعة. أما في أوقات الصلاة، وفترة القيلولة بعد الغداء.. فأكثر أصحاب تلك المتاجر يسدلون على البوابة الكبيرة، ومنصات عرض البضاعة: قطعة قماش كبيرة بحجم واجهة المتجر، ويذهبون إلى المسجد أو إلى المنزل لتناول الغداء... وكلهم ثقة بأن الدار أمان، ولن تمتد يد أو قدم إلى متاجرهم وبضائعهم!

تلك هي قاعدة الأمن العريضة... ولم تكن حشود العمالة الأجنبية قد تدفقت بهذه السيولة اليوم.

ارتجّت «الرياض» لدويّ التفجيرات، وخرج الموظفون من إداراتهم، وركض الكثير منهم إلى مدارس أولادهم وبناتهم ليحتضنوا فلذات أكبادهم، وينطلقوا بهم إلى بيوتهم مع أهلهم، والبعض دفعه الفضول لمشاهدة موضع الحدث، وشفاههم ترتج بكلمات استفهامية قلقة:

هل أصابت هذا البلد الآمن عدوى الإرهاب المتزايدة في ما حوله/ الجزائر، مصر؟!

للوهلة الأولى... عاد الناس في الرياض بذاكرتهم إلى عام ١٩٩٠م، يوم كان حاكم العراق/ صدام حسين يرسل صواريخه المدمرة لتضرب أهدافاً مدنية، وتهدم مدارس وبيوتاً... يومها أصاب الناس الفزع لهول ما يواجهونه لأول مرة، يسمعون عن الصواريخ ولم يروها من قبل.. يقرأون عن الحروب، لكنهم لم يكتووا بنارها.

التجربة يومها كانت عصيبة... في الليلة الأولى: بكى بعض النساء، وأجهش الأطفال، وهم يتكومون في أحضان بعضهم بعضاً، وقد أطفأوا الأنوار، وتحلقوا حول التلفاز الذي يوافيهم بالتعليمات التي يواجهون بها هذا الحقد!

تلك تجربة أولى... لكنَّ الناس بعد ليلتين من (معاشرة) صواريخ صدام المرسلة اليهم... استطاعوا أن يوطِّنوا أنفسهم، وكان البعض منهم، حتى النساء والأطفال، يصعدون إلى أسطح

منازلهم لمشاهدة صواريخ صدام حين تصطادها صواريخ الباتريوت المضادة. ويتناثر التصفيق من حفافي تلك الأسطح!

اليوم... اختلف الخوف، تعامُل آخر جديد يقتحم أمن مجتمعهم.. من خلال: الإرهاب؛ البلاء المستحدث الذي أخذ يشيع في العالم، ويقترب كثيراً.

الجريمة في هذا الوطن: كانت «ندرة»، وسرعان ما يتم السيطرة عليها، وكشفها، وسحقها بالعقاب المستمد من تشريع الدين.

الناس يتحدثون في متاجرهم، وأماكن أعمالهم، وسهراتهم، ومنتدياتهم.

الكلام يتمدد... تختلط الدهشة فيه بالخوف، باستذكار أسباب كانت كالشقوق تتسرب منها إلى الأمن: الجريمة والإرهاب.



في مساء اليوم التالي على التفجيرات.. جاءه صوت «سارة» عبر الهاتف من بعيد:

ـ «أنتَ ما مُتْ»!

ـ قال: صار الموت نسبياً يا حبيبتي.. متى ستعودين؟!

ـ قالت: الله يحفظ وطننا.. القاعدة راسخة إن شاء الله، ويا جبل ما يهزك ريح، طبيعي أن تتناثر شرارات من النار المشتعلة حولنا.

ـ قال: في رأيي.. لا ينبغي أن نبسّط الحدث، لا بد من أن نفكر في خلفياته وأبعاده.

ـ قالت: تخطيطات فاشلة.. إنهم لا يفجرون أحقادهم فقط، بل ويفجرون يأسهم وعجزهم.

ـ قال: الإرهاب ظاهرة هذا العصر، ما نسميه ثمالة القرن العشرين.

ـ قالت: في هذه الحالة نستدعي عقولنا في الحوار عن المدارك، وكيف ننجو بالشباب الصاعد من التأثير المضاد.. فهذا اختراق لعقيدة الجيل الجديد، لخلخلتها بأفكار تُلصق إيديولوجياً بل وعقائدياً، بالاسلام.

لم تكن نفسية «سارة» تطيق المزيد من الكلام.. فقد أنهت مكالمتها، ووعدته بأن تتصل به لاحقاً للاطمئنان عليه.

واستمرت وتيرة الحياة.. لم يتغير شيء في نظام الناس، فالحدث شد الانتباه في لحظة وقوعه.. وتناهت همهمات خوف من البعض: أن تمتد عمليات الإرهاب إلى مدن المملكة الأخرى.. والبعض الآخر: استبعد وقوع حادث مماثل.

لكنَّ توقعات الناس، وتحليلاتهم.. لم تتوقف، بل واصلوا الكلام في أماكن العمل، وفي مجالس سهراتهم ومناسباتهم الاجتماعية... وتركَّزت أحاديثهم في: سبل الوقاية من الإرهاب، ومن محاولات التأثير على عقول الشباب، ومناهج التعليم وأساليب التربية، وما حدث داخل الأسرة وروابطها.

وتحدَّث الإعلام عن قوة الجبهة الداخلية... ليس بهدف التطمين الإعلامي، بل بأسباب بناء الانسان: قيمة، ووطنا... مما يشكل ثروة الأرض الحقيقية.

❀

استغرق «فارس» في قراءة الصحف.. شدته هذه الحوارات المنشورة مع آباء وأخوة المتورطين في تنفيذ التفجيرات بحي العُليّا.. بعد انكشاف أمرهم، وإلقاء القبض عليهم.

قال الأب المكلوم المفجوع في ابنه ـ أحد أضلاع المؤامرة ـ بنبرة حزن قاهر:

ـ لقد هجرنا ابننا ـ أنا وأمه ـ ولم نعد نراه بعد أن تزوج، ولا حتى نسمع صوته بالهاتف ولو مرة في الشهر.. ويدَّعي أنه مسلم متشدد. ومن أولويات تهذيب الدين لخلق المسلم: أن وصَّاه بوالديه إحسانا.. فالدين أو العمل في سبيل الدين حسب ما ادَّعاه: لا يبرر للابن أن يهجر أباه وأمه بالشهور!

تبكي أمه، وهي تلتقط الحديث من والده.. فتقول:

ـ نعرف أنه سيلاقي جزاءه لقاء جريمته. لكنه سيترك طفلاً يبلغ من العمر شهرين.. لم يفكر في مستقبله!

أما الأخ الأصغر لهذا الجاني، فقد أجهش بالبكاء طويلاً، ثم رفع رأسه، وقال:

ـ الوطن فوق الجميع.

طوى «فارس» صفحات الجريدة، وتشابكت في ذهنه أسئلة

كثيرة، وخواطر استغرق فيها:

الماضي: لم يعد يستكنه الحاضر.. وجيل أجداده وأبيه يشجب هذا الحاضر.

والحاضر: يشك كرأس رمح حتى النزف.. وقد صار «العنف» عاطفة جديدة.

حواره مع نفسه بدأ بالتلفت إلى الخلف، ربما ترحماً على أيام زمان.. وفي الزمان/اليوم: ما يمكن أن يتطور إلى كوارث في صميم صياغة الأجيال الجديدة، بل وصياغة المجتمع الجديد الذي كان من المؤمل أن يأتي مميزاً بتفوق العقول وليس بتشويشها أو انحراف أفكارها، وبسيادة العلم والوعي والنضج.

مؤشرات لها أبعاد المتغيرات في خروج المجتمع إلى حقبة جديدة.. لكنَّ التعامل معها هو المشكلة!

لقد تضاعف الخوف في نفوس الناس، وتقلّص التقاء أفراد الأسرة بعضهم بالبعض الآخر، وكل فرد يبدو مشغولاً بنفسه.

تذكَّر «فارس» عبارة لرجل أكاديمي عربي، سألوه عن الإرهاب اليوم: كيف يُعرِّفه، فقال:

- «الإرهاب.. حوار دموي في الظلام، ومرض نفسي يعطي مبرراً للإرهابي لأن يفعل ما يشاء»!!

اكتشف «فارس» حفلة إغماء في داخله، بعد هذا التفكير الذي سرقه للحظات.

في لحظة دخوله إلى أعماقه.. فوجئ بأن عقله مغمى عليه

بسبب هذه الممارسات الغريبة على مجتمع الاسلام الآمن، وعلى مجتمعه بالذات.. وفوجئ بأن قلبه مغمى عليه، برغم أن الشرايين تضخ الدم.. وفوجئ بأن نفسيته مغمى عليها، وأحلامه، وذاكرته، وكل تجاربه وأفكاره: مغمى عليها.. جثث بلا حراك في داخله. فمن يقدر الآن على شحنها باليقظة؟

ماذا حدث؟

تذكَّر... نعم. من وقت أخذ يطول، وكل أشيائه العظيمة هذه: قلبه، ونفسيته، وأحلامه، وذاكرته، وتجاربه، وأفكاره.... كلها: صارت تتغذى بسندوتشات صغيرة لا تشبع ولا تعين هذه الأشياء على الاستمرار في الحياة!

ما هي هذه السندوتشات؟!

إنها مرتبطة بطبيعة الواقع، بكل ما فيه من سرعة وسباق مع الزمن، وفقدان تدريجي للأصالة، و..... فراغ في المضمون، وفي الهدف!

تعب من هذه الجرعات التي هي في واقعنا: تجريع.

تعب من هذا الصَّلْب اليومي على تزوير الأصل، ثم تشويهه.

تعب من هذا العطش الروحي، والعطش إلى حريته الخاصة. واقع متضخم ـ كالتضخم المالي ـ يكبله ويشده إليه عنوة.

أشياء كثيرة لم يعد لها طعم.... فلماذا ؟

ـ قالت له «سارة» مرة: إنها قرأت عن مرضى القلب الذين يسقطون أحياناً في الاكتئاب أو الحزن. وما يشعر به «فارس» اليوم:

ليس هو الاكتئاب، ولا هو من مواليده، فهو يقهقه أحياناً كأنه يشاهد مسرحية كوميدية، وفي أحيان أخرى: يهبط.. يشعر بأنه غارق في لج.. أنه وحده، لا يتذوق أية نكهة حتى الأكل!

أحس بأن ما طرأ على نفسيته يشبه القصف المركَّز.. تارة على قلبه، وتارة على عقله، وفي أكثر الأحيان على وجدانه!

فهل هو في حاجة إلى طبيب نفساني؟

هو يعرف أسباب القصف المركَّز هذا. لكنَّ مشكلته تكمن في عجزه عن تغيير ما هو ماثل في حياته أو واقعه، كما يقولون: (Too Late)... انتهى الوقت الذي كان يمكنه فيه: أن يغيّر، أو يُبدِّل، أو حتى يُحسِّن!

لكنه تحول إلى «حالم» في عمقه.. يتخيل بيتاً صغيراً/ كوخاً: على ربوة، تغطيه غابة من الأشجار، وموسيقى، وصوت فيروز، وكتباً لم يقرأها بعد، و.......... أنثى أحبها فلا يملّ منها، وتحبه بقناعات العقل ودفء القلب، فلا تهجره بعد حين!

عاش العمر «اللي راح.. راح» ـ كما أغنية عبد الحليم ـ وكان في هذا العمر يواجه معارك، ويسقط في خنادق، ويقفز فوق كمائن... وما شعر بالخوف يوماً، كان التحدي أمامه: دعوة للانتصار والتفوق.. وكان لا يفكر بالعودة إلى شيء ولا إلى أحد... إلاّ (إليها هي).

لماذا؟!!

لأن هناك أشياء كثيرة لم نعد نصدقها، وكلمات أكثر نقولها

ويسمعها الآخرون فيطبعونها بالكذب أو للاستهلاك!

في أكثر مراحل عمره التي عاشها.. وجد الناس يعاقبونه على الحب!!

حتى «سارة».. كانت أحياناً تعاقبه على شدة حبه لها، فتختفي...... أو يكسو صوتها ثلج حين تخاطبه.

⊛

أكثر من ستة أيام على محادثة «سارة» له، و.... اختفت مرة أخرى!

- ترى... أين هي؟

لماذا تدعه وحده في هذا العالم «الطافح» بالمتناقضات، الغريب، الموحش في غيابها؟

يظن «فارس» أنه: حطم الرقم القياسي في احتماله لوحشة العالم وملل الوقت طوال غيابها.

يفتش عن حمامة بيضاء... فيقتحم عينيه: رشاش، مدفع، مسدس.. في الأخبار، في (نشاطات) العالم، وفي أفلام العنف، والمخدرات، والجنس. حتى صار هذا الشاهد الموحش على شظايا الانسان في حركته اليومية!

آهٍ: الشظايا.. والوحشة، والوحدة، والبصمات التي تكاثرت!

مجرد خاطر عبر في باله الآن، يود لو صارح «سارة» به، ولا يريد أن يظلمها:

ربما هي أنثى - لا يقول إنها عجزت عن عشق رجل - بل هربت من عشق رجل لها فصار الحب عندها: خاطرة، أو... ربما دمعة تفاجئها في منتصف الليل، أو انطلاقة إلى شهوة الرجل... فالحب عندها: لا تسمح له بأن يقيم، وترفض أن تمنحه الجنسية، وتهرب من توغله فيها.

تخيل جسراً يجمعهما.. هما فوقه ملتحمان متحدان، وليس جسراً يربط بينهما.

تخيل أنها وهو.. يمشيان امتداد هذا الجسر في لحظة غروب، والبحر أرضية لهما وللجسر، ويعودان فوقه وقد أسدل الليل سُتره، فيضمها إلى صدره!

تلك هي مملكة العشق بكل جنونها الذي حلم بأن يحيا معها.

ها هو الآن: معتقل في بقعة صغيرة حبسته هي داخلها بين: الممكن والمستحيل.

إنه الآن يفتقد حميميتها... عندما تكون في نهره.

# الفصل الثامن

## إغماءة... وتقاعد عاطفي

دخل «فارس» بهذه الحبيبة/سارة إلى ذاكرة الحلم.. فلم يعد يدري: هل هي حبيبته، هل هي عنوان فرحه... أم أنها: هذا الجمال الذي يكثف رغبته في البكاء خوفاً من فقدها في كل مرة؟

في بدء معرفته بها.. كانت «صغيرته»، ذات السبعة عشر عاماً، وكان هو في السابعة والعشرين... هدهدها، وركض وراءها. أحبها حين كانت تعامله بمعنى في قصيدة للشاعر «هنري ميشو» قرأَتْها عليه ذات ليلة:

ـ «أمسيات.. أمسيات/كم من مساء لصباح واحد»؟!

كان هو في بعض الوقت: أماسيها.. وكانت هي في كل الزمن: صباحاته وأماسيه معاً.

والأمسيات: أروع، والصباح: بداية. مزج فيها الأمسية بالصباح، فإذا هي تتشكل في حياته: لوحة الحلم... كأنها بغرستها في عمره تصبح هي: تاريخ ذلك العمر... وحدها.

كانا يتحدثان في زمن التعارف، ثم اللقاءات غير المنتظمة،

عن الحب: قُبْلة، وشهوة، وامتلاكاً أو استحواذاً... جنون رائع ذلك الحب، كانا ـ معاً ـ يختتمان به أمسياتهما التي كانت حبلى بالشجون وبالوله.... فأين هما الآن من ذلك الجنون؟

قصيدة.. إحساس.. نفس مبعثرة.. أحلام تحترق كالسيجارة بسرعة!

ثم.... مغادرة هذا الفرح المختلط بدمعة، بصمت ما بعد الوداع، أو الغياب، أو القطيعة منها له... لكنهما عاشا ذلك العمر بانحياز شديد منهما إلى الفراشات التي تحوم حول اللهب، وتتحاشى أن تحترق.

هي هذه «اللذة» التي قال عنها شاعر الهند/ طاغور: «ابتغوا اللذة في الألم».

أما في هذا الزمن/ «الواقع».. فلم يعد أحدهما يُحدِّث الآخر عن الحب، ولم يعد يستمتع باللذة في ابتعاد كل منهما عن الآخر... صار الحب ـ في مجتمعهما ـ من الشبهات!

ـ قال لها ذات مساء وهي تتوجس من لقائهما: تصوري! أي إنسان تغتصبه الشبهة بالحب، أو الاشتباه بالحب(؟!) وإذا سطعت لحظة حب بيننا، أو من ظروفنا: ركضنا خلفها مثلما يركض الناس في المناطق الباردة نحو البقعة التي تنتشر فيها الشمس، ولو... لدقائق!!

يذكر ذلك المساء الذي التقيا فيه، و«جدة» ـ المدينة: يغرقها المطر.

كانت للمطر رائحة متصاعدة من الأرض، وهو يحب رائحة المطر... تقابلا، كل منهما احتل طرف الكنبة المستطيلة، والفراغ بينهما شاسع كالفراق... لم يتكلما في ذلك المساء إلا بكلمات قليلة متقضبة تبادلاها، وبقي كل منهما صامتاً في مكانه.

ـ سألها قبل الصمت: ماذا فيك؟! نفسيتك الليلة تبدو كسماء جدة، فيها غيوم!

ـ أجابت باقتضاب: لا شيء... كل ما في الأمر أنني غير راغبة في الكلام معك.

ـ سألها: هل يعني هذا أن أمشي.. أتركك الآن؟

ـ قالت: لا... لا أعني رحيلك، ولكن... لو أردت أن تمشي... إمشِ!

كان متأكداً من أنه لم يغضبها تلك الليلة.. ربما كانت غاضبة من أحد غيره، من شيء ما. وربما هي ليست غاضبة ولكنها تبدو مثل المكتئبة.

طبعاً.. لم يخرج تلك الليلة من عندها، أبقاه إصراره على قراءة أعماقها حتى يعيد البسمة إلى شفتيها!



الليلة... تذكَّر ذلك الموقف الذي تقادم، وضحك من الموقف الجديد الذي تميز هذه المرة بالمرح.. مرح «سارة» في قمة نبرة الحزن التي لاحظها في صوتها.

لقد عادت البارحة ـ فجأة ـ من رحلتها الطويلة، وانتظرت إلى

الليلة التي تلتها ـ هذه ـ لتكلمه، وتعلن له خبر عودتها.

ـ سألها: لماذا لم تتصلي بي لحظة عودتك؟!

ـ قالت ضاحكة: «يمكن... لأني ما أبغي أكلمك البارحة».

ـ سألها: لماذا... ما هو السبب؟

ـ أجابت: من دون سبب.. يمكن ما لي نفس!

ضحك من أسلوبها... فهذه لقطة طريفة من تجلياتها معه.

لديها تعبيرات تبدو جديدة في تركيبها، تفاجئ بها المستمع لحوارها معه.

هو لم يحبها طوال السنوات التي غذّت بهما في العمر فقط... بل شعر بأنها (ضرورة) هامة في حياته، حتى في قطيعتها المتكررة.

كان «فارس» يظن أنها تقتل الحلم في نفسه، أي أنها: تقتل نفسها في داخله لأنها هي حلمه.

عرف تأثيرها العميق، التوحُدي في قلبه. وها هي نفسه تطيب الآن من الحالة التي أغرقته أثناء سفرها.

في قطيعتها المتعددة.. لم يفكر ـ مجرد التفكير ـ في نسيانها، لأن حضورها في ذاته يمثل تشكيل لحظات الصدق. لم ييأس من وصالها مجدداً، ولا من طلوعها ـ فجأة ـ كشمس بعد أمطار غزيرة ورعود وبروق، لتقول له عبارتها الدائمة:

ـ «ها... إيش أخباراتك، إنت ما مُتْ»!

الآن... اختلف تقييم الذاكرة فيه، ولكن... لن يستطيع أحد أن يعبث برعشة الحب، فهل تصورت «سارة» يوماً: أنه يطاردها كظله؟

أحبها منذ ذلك الزمن، وفي ذلك العمر المتلع بالشباب.. ولم يشعر في لحظة ما: أن حبه لها يتعرض للنسف من امرأة غيرها.. لا من اللواتي حاولن اقتحامه عنوة لاغتصاب مشاعره، ولا من اللواتي عبَرْن لحظاته المؤقتة.

يسترجع أبعاد معاني عبارة «فيكتور هيجو» لحبيبته جوليات القائلة:

ـ «كم هو الحب عقيم.. إنه لا يكف عن تكرار كلمة واحدة: أحبك. وكم هو خصب لا ينضب، فهناك ألف طريقة يمكنه أن يقول بها الكلمة نفسها»!

في يده رواية أهدتها له «سارة» من سفرها. توقف عند عبارة فيها، وقهقه وهو يقرأها بعد أن وضعت له تحتها خط:

ـ «أريد أن أُحال إلى التقاعد العاطفي... أيمكنك أن تبلغي قديسك طلبي هذا»؟

حقاً... هل تتقاعد العواطف، ويكف القلب عن الحب وهو لم يمت بعد!!

رنّ جرس الهاتف.. صوت «سارة» يقتحمه بسؤال من أسئلتها المفاجئة دائماً:

ـ ما بك.. لماذا صوتك غارق في... في ماذا، قل لي؟

ـ قال: صدقيني لا أعرف.. كنت أقرأ في هديتك/ الرواية، وتوقفت عند عبارة إحالة الإنسان إلى التقاعد العاطفي، ضحكت، ثم بلْمت... شيء من القرف سكنني منذ فترة، وأخذ يحفر بين ضلوعي وحتى في أفكاري: خنادق وحفراً ومطبات.. شعرت: بأنني «وحيد»، أن الحب مخطوف، والفرح ملطّخ بكميات هائلة من المساحيق.. وأن الحلم أفسدته بشاعة وقسوة الحياة المادية، وغير المستقرة. فلا الزمان هو الزمان، والمكان تشيع فيه غربة النفس والروح.

أحس بأن خيبات الناس ـ في واقعهم اليوم ـ تتكاثر ولا تتفاعل لتتغير. والأعياد: ممنوعة، ومطلوب من الإنسان ـ المعاصر/ المعصور ـ أن يتبرأ من كل خطوطه المستقيمة، ويركض في أزقة ملتوية الدروب.

صمت هنيهة، وهي تصغي إليه، ثم قال:

ـ لماذا لا تردّي عليّ... ناقشيني، غيرك لا يستطيع أن يفهمني، ويعجز عن أن يُفْهمني.

ـ قالت: إني مصغية... حزنك هذا هو حزني، وينبغي علينا ـ بأمر الواقع! ـ أن نعاني منه في السر، أو نجعله كالحب وكالحرية: سرياً!

ـ همس: أحبك... حتى لو ساد صمت بيننا، ولكني أرجوك ـ بأمر الحب ـ أن تبقي هنا في كوكبي ما بين غروب الشمس وشروقها.. لا تسافري حتى لا يكرّ عليّ النزف.

ـ قالت: «برغم أن الدنيا ما زالت تحفل بتواجد أناس صادقين

جداً، لكن... حين نتكلم مع بعض، أشعر بأنني وأنت فوق الناس كلهم، ويمكن أَصْدق منهم.. حتى لو كان الناس مثلنا تماماً».

- قال: تنقلينني دائماً إلى عالم أجمل.. عالمي الذي أبحث عنه من زمن. تنقلينني إلى أعماق نفسي، وإلى نصاعة تفكيري، وإلى نقاء عواطفي. وحدك أنت التي أتوحَّد فيك وأتوحّد بك!

- قالت: أحس بك.. أنت تعبان، شيء طبيعي أن تتعب، لكني أحس كلما حدثتني عن نفسي وعنك وعن الحب، كأنك تريد أن تسجنني... في كلماتك، وفي رسائلك إليّ: عواطف كثيرة تنتشلني من هذا الضجر على الأقل (!!) وأحياناً - أصارحك - أتأفف منك، أقول: أنت تريدني علشان ما تطفش وبس... أقعد أشوف حالي بيني وبين نفسي حتى أقدر أيضاً أشوف حالي على الناس وليس بينهم!!.. أحس بيني وبين نفسي بأني أحسن من الناس.

لا تقاطعني من فضلك.. سأحدثك عني، ها؟

مطلوب مني أن أكون «سمبوطة».. يعني: مبسوطة.

أنا من زمان: أحزاني سرية حتى لا أضايق كل مَنْ حولي.. والشيء الوحيد الذي أقدر على أن أعلنه هو: فرحي.. دائماً أُظهر للناس أني مبسوطة حتى لو لم أكن كذلك.

حين أستعد لزيارة أمي، ولرؤية طفلي الوحيد، وللقاء صديقاتي.. أعمل نفسي مبسوطة، فقط، حتى لا أجعلهم يتضايقون مني أو بسببي.

أنت تحدثت عن «الإغماء».. وهناك فئة لا تقدر على أن ترتفع إلى مستوى الإغماء الذي أحسست به وحدثتني عنه. اختاروا برغبتهم أن يخدروها ـ أنفسهم وحيواتهم ووعيهم ـ والبعض يستعمل المخدرات!

هناك «ناس» كثر عرفتهم في أول حياتي.. صاروا اليوم: إما متبلدين تراهم يمشون كالقطيع، أو هم خدّروا أنفسهم حتى أغمي عليهم.. وبعضهم: اتجه دينياً، أو هكذا ينعتون اتجاههم ـ بتطرف شديد ـ لماذا؟!... لأنهم يحتاجون إلى أن يتمسكوا بشيء، ولا يمكن أن نلوم أحداً... جيل كامل عنده إحباط واكتئاب.

وتعال.. نتفرج عليهم هنا وهناك ـ في غير مجتمعاتنا ـ في أميركا وأوروبا... كنت جالسة أتفرج على حفل ختام الأولمبياد، وكان حفلاً جميلاً، ولكن... لا يمكن لتلفازات العرب كلها أن تعرض الحفل من طقطق لسلامو عليكم.. وهمست لنفسي لحظتها متسائلة: لماذا لا نعبّر نحن أيضاً عن أفراحنا. نتحرك، ونقف، ونرقص... ولماذا نحاول أن نتعامل مع أفراحنا بخجل شديد كأنها سرية؟

هل لأنه ممنوع علينا أن نفرح؟!

نلاحظ إذا ما ابتسم أحدنا... تلاحقت وراء ابتسامته الأسئلة: «إيش فيك.. لماذا تبتسم»؟!.. حتى تشعر بأن الابتسامة: قلة أدب!

أيضاً.. لا تقاطعني من فضلك، دعني أفضفض..

ضحكتَ وأنت تتكلم عن «التقاعد العاطفي»... يمكن

الواحد يستقيل، أو ـ على الأقل ـ يأخذ إجازة من الحب (!!) الحب يبقى في داخلنا: ذكرى حلوة.

التعايش: استمرارية الحب... إن الحب لا يموت حتى لو انعدم الاتصال، وربما هذه مشكلتي!

مشكلة الواحد منا: ليست هي الحب، فمن حق الإنسان أن يحيا هذه المشاعر الجميلة، في مقابل أنه أيضاً قد يحرم منها.. المعاناة في الحب بكل ما فيها فهي إحساس لا يهون!

أنت تحدثني عن ذكريات لنا مضت.. أدعوك إلى أن لا تتمسك بالماضي، ولكن... دعنا نغرس ذكريات في تربة هذا الحاضر. وما أعبِّر عنه ليس هو التمسك بالماضي، بل هو: الاستمرارية.

خلاص... انتهت خطبتي، فهل لك من تعليق؟

كان «فارس» يطرد وراء تحليلها، وتوصيفها، وآرائها... كأنها جرّته وراءها ليلهث.

ـ قال لها: لماذا تحاولين أن تغمضي قلبك، وتصيبي عقلك بكدمات من أفكار الاكتئاب؟

كأنك تحولين قلبك إلى (مقبرة).. تضم رفات من أحبَبْتِهم وأحبوك، وصرت تتعاملين مع هؤلاء ـ برفضك للتمسك بالماضي ـ كأنهم «موتى في قلبك»، ولا بد لك من أن تقومي بعملية مسح بين كل فترة وأخرى للاطمئنان إلى موتهم في قلبك.

ـ قالت: أسألك الآن.. هل أنت تحبني علشان الحب، وأنا.. هل أحبك، أعشقك، أم لأنك ـ فقط ـ تثريني عقلياً (؟!)

لا بد من أن أقول إنك تثريني عاطفياً أيضاً.......

ـ قاطعها: وعطائي هذا لك... ألا يثريك عاطفياً؟

ـ قالت: ما أدري... يمكن أيوه، يمكن لأ!

أحسَّ بأن قلبه شهق مع إجابتها... كأنه يقول لها وللزمان معاً:

ـ أرجوكما... كُفَّا عن الدوران في حياتي.

# الفصــل التاســع

## يعيش ولا يحيا!

ها هو «فارس» ـ بعد رحلة سارة في السنين، وبعد سفرها واستغراقها في الغياب ـ ما زال أمام البحر الذي يقذف الأصداف والوشل على بعد خطوات منه. . . يجلس وحده، تكويه جمرة اشتياقه لها، يشاهد أضواء الميناء الصفراء على البعد، وشلالات بيضاء من النافورة التي زرعت كفنار في عرض البحر. حضن يعانق ويلتقي، وذراع يُلوّح بالوداع، لعل في التلويحة وعداً أخضر!

منذ سافرت «سارة» إلى عمق الغرب، لم تحاول أن تطفئ ظمأه إليها بصوتها إلاّ مرة واحدة، لتتركه يحاول دائماً معها. . يتصل بها عبر الهاتف فلا يجدها، ويبعث إليها برسائله عبر الفاكس/أحدث وأسرع وسيلة. . وهي موغلة في صمتها، لم ترد عليه إلا مرّات يعدها على أصابع يده الواحدة!

عيناه تبحران على امتداد النظر. . . تترقبان انبلاج وجهها.

أعماقه تحولت إلى ميناء إنساني، ما زال مضاءً رغم غارات الكراهية، وتكريس الحروب الصغيرة بين الأهل ـ كالحرب التي أشعلتها العراق ضد جارتها الكويت ـ وإخلاء الجرحى: جرحى

الحرب، وجرحى النفس في عالم: الإنسان والنسيان!

فهل تراها: نسيت؟

منذ تلك السنوات التي تعارفا فيها وتقاربا حتى الامتزاج، وهو يسكن أعماقها، وهي تجليه عنها، وحبه لها ينغل في وريده وهو يستعذب تأليمه!

لا... لم تَنْس سارة، لكنها صارت تعاني من حشود في أعماق نفسيتها، ومن التزاماتها نحو ابنها وتأمين مستقبله، ونحو «واقعها» وتحقيق الاستقلالية الآمنة له.

لكنَّ «فارس» في غيابها يشعر: بأن الزمن في غربتها عنه، صار مجرد وقت يقطعه، ولا تنتهي الرحلة الصعبة. ما زالت هي في نفسه: مساحة العمر، في الفرح والترح.. في الابتسامة والدمعة، وفي غيابها عنه: بقي يرضع من سحابة تُلوّح بالغيث ولا تمطر، كأنها سحابة من زجاج!

قام من جلسته أمام البحر، يجرّ خطواته المتثاقلة ميمماً بيته، وهو يهمس لنفسه بما قاله الشاعر بشار:

ـ إن الفؤاد يرى... ما لا يرى النظر!

لقد تحبب إلى «سارة» منذ أحب نفسه.. كانت النظرة: صادقة حيناً، وكاذبة حيناً آخر. لكنَّ نظرة الفؤاد هي التي تبقى عميقة لأنها عريقة، لا تكذب وإنما تتكاذب أحياناً من وازع الاحترام.

خفَّت خطواته إلى جهاز «الفاكس» في اللحظة الأولى من دخوله إلى بيته.. تهللت أساريره وهو «يلمح» خطها، فقد اتزانه،

ونسي أن يبدل ملابسه، التقط الورقة من الجهاز برفق خوفاً عليها من سقوطها، وجلس يقرأ رسالتها، كأنه يصغي إلى صوتها:

ـ (يا سيد الجميع:

سيدي: أنا ما نسيت، ولا بطًلت، ولا خاصمت.. أنا قاعدة أقرأ وأعيد القراءة، وأفكر فيك وفي الدنيا!!

تقدر تسامحني... ممكن.. ممكن.

ممكن يعني تعذرني علشان ما رديت.

أكيد... ممكن!

أفكر فيك ـ وحدي ـ لا تشوش عليّ لو سمحت. دع تفكيري فيك وعنك لي وحدي. مالك دعوة فيك... اتفقنا؟!

لا زلت أنا على قيد الحياة. الله يخليك، خليك انت على «قيدها».. لازم واحد فينا يمسك فيها وإلا تخرب.. أليس كذلك؟!).

كأنّ اليأس منها قد تحوّل الآن إلى أمل جديد في قدومها إليه، وقد اكتمل النضج الذي لا بديل له لكل ثماره وحقوله.

لم يصدق أنها تعود ـ ولو عبر رسالة قصيرة ـ وأنها تعلن عن بقائه في ذاكرتها، أو أن ذاكرتها لم تخن بياضه في عمقها!

يسترجع من الماضي صوتها.. أصداء لتلك العبارة التي خصته بها ذات مساء:

ـ (أنت ما زلت السر الوحيد المعلن.. في حياتي وفي حياتك)!

ـ سألها يومها: فهل أنت ضد هذا السر، أم معه؟

ـ عادت إلى أسلوبها المعتاد معه.. تقول له: لا تصدقني، لا تصدق نفسك.. فكل هذا العالم يقوم اليوم على الكذب، والتزوير، والأقنعة.. على العمر المؤقت، والكلمة المؤقتة، و... ربما على الخفقة المؤقتة أو العابرة، وبالأبيض والأسود... وهذه هي: ذاكرة خاتمة القرن العشرين!

يومها.. لم يرد عليها، استغرق في الصمت أو الإصغاء لها، وهو يتمنى أن تواصل إعلان الحقيقة الموجعة على الواقع البشع!



ها هو يمشي: يتيماً منها.. يقطع منعطفات الأشياء المؤقتة: لحظة مؤقتة، ضحكة مؤقتة، فرحاً مؤقتاً.. حتى الحب، صار الناس (يمارسونه) مؤقتاً، لذلك اختصرت دروباً كثيرة إلى الجنس الذي تحدد تماماً في التفريغ بشكل عاجل ومؤقت!

كثيرة هي الرسائل التي كتبها إليها، وناداها فيها، ولكنه لم يبعث بها لأنه لا يعرف ساعي البريد الذي يمكنه أن يوصلها إليها من دون أن يسرق منها دفء قلبه!

عاش على «الحلم».. حتى بلغ عنده إلى حد: الاجترار، فكيف لا يكون هو الجمل الظمآن في صحراء من الرمال السافية؟

حتى الخيال: فقده... وجلس يلملم قدراته، ويقف حارساً على ما تبقَّى له منها وعنها: الحلم. يخاف عليه أن يفسد هو الآخر، كما فسدت قيم أخرى ثمينة مثله.. كالضمير، والخُلق، والمودّة!

وهي بعيدة. ها هو يلملم - مع قدرته - الحزن المرغم على الضحك، ويرى هؤلاء المتعبين، ويسمع شجنهم. تقضمهم هموم المعاناة اليومية وهي تزداد تعقيداً كلما ازدادت الحضارة تضخماً!

الكل - اليوم - صار يبحث عن (واسطة) يتقدم بها حتى إلى الفرح ليقبل به، وإلى الراحة لتحضنه، وإلى الحب ليظلله من هجير الحياة.

ها هو: يرفو عبارة الحزن المرغم على الضحك، بعد أن دخل في حياة الناس شيء لم يألفوه من قبل، وهو: الخوف... ومطلوب من الناس في واقعهم هذا: أن يرسموا الحب بالقلم «الرصاص»، بشرط أن يعرضوا لوحة الحب، وكلمة الحب على (الرقيب)!

أشياء كثيرة تغيَّرت، ما عدا: قلم الرصاص، و... الرقيب!

يشتاق هذه اللحظة إلى أن يُقبِّل لؤلؤته.

على شرايين قلبه... يحبو إلى بهاء وجهها - في تخيله لها أمامه - ليقطف من بين شفتيها أجمل ابتسامة لم يشاهدها رسام الجيوكندا/ دافنشي على وجهها.

لا أحد يمرُّ من هنا... هكذا يريد فارس في تخيله الجميل.

الكل يقف: متبتّلاً، خاشعاً.. يتأمل اللوحة/ هي «سارة»، ويغرق مثله!!



سرعان ما أتى زمان جديد، طلعت به كلماتها القصيرة في رسالتها عبر الفاكس... كأنها في هذه الرسالة: أطلقت لفتاتها،

ونثرت ضحكتها. . وتساءل «فارس»:

ـ «ترى. . . هل هو زمان جديد. . . زماننا حتى الموت ـ أنا وهي؟!

كيف نقسو على أنفسنا بإهدار زمان يطلع ملكاً لنا، ولا نتشبث به، بل نتجافى؟!

ما زال «فارس» يحفر صوته في قصائد «سارة». . كل كلمة تكتبها إليه هي: قصيدة.

استمزج أن يرد على رسالتها القصيرة/المفاجأة. . . فكتب إليها:

ـ (يا سيدتي اللؤلؤة المصدوفة:

من أين بدأت الرحلة نحو اللحظة؟

أين يصب جنونك: فرحاً، وشباباً ما زال، وتلاقي؟!

وأنا. . . أبحث عن صفصافة، لا تفقد ذاكرتها. أكتب في فيئها قصيدة عشق وفيّ، وأمنحها من سريرتي: إنتمائي للحب وللحزن!

فهل تتركيني أتخطى مسافات ظنونك وجنوني حتى أبلغ حدّ السيف. . . ذلك الذي يحكم على خفقاتنا!

أريد أن تطعميني حنانك، حتى أمنحك حقولي وغاباتي، وكل أنهاري وسنابلي.

آهٍ. . ما أبلغ تجذرك بين ضلوعي، فقد صرت كل السُّبُل.

آهٍ.. ما أقوى الحرمان منك عندما يرتدي دثار الالتزام المبذور في أيامك وأيامي الضائعة.

ألتقي بك كل ليلة فوق صارية سفينة الحب: (نعم... أنا ما بطَّلت)، أرجوك ـ إذاً ـ أن لا تحبسي هذا الشجن المتدفق من بين ضلوعك. دعيني أختلط برموشك ونظرتك، فأنا عاشق التفتح فيك.

يُتمي الحقيقي: حين تغيبين، أو تقاطعين... أنت التي تطهرين نزفي وتغسلين روحي من أوشاب الحياة، وتعيدينني ذلك الإنسان: العاشق، المجنون، المتوتر، الفَرِح، الإنساني... فأي حلم يزهر في زمن: «لا يمنحنا حق الإجابة»؟

في غيابك... أمرُّ بقلبي فلا يكلمني.

آلمني خصام قلبي لي كثيراً، كثيراً.

تسرقني أحياناً تلافيف غيمة.. وبرغم ذلك: أبحث عنك، أحمل ميراث أحزاني، ووحدتي ووجعي.

تدفعني رغبة قوية لأحدثك اليوم عن نفسي، وبماذا أحس في أيامي هذه؟

ترى.. أية نفس تريدين أن أسلط عليها عدسة «الزوم»... النفس التي تجمَّع في أعماقها عشقي لك حتى الثمالة، أم النفس التي تجمَّع حولها: العمر بهذا العراء فيه اليوم؟

حسناً.. «عبد الصبورك/ صلاح» قال:

ـ «الحب في هذا الزمان يا رفيقتي

كالحزن... لا يعيش إلا لحظة البكاء

أو... لحظة الشبق!

الحب بالفطانة... اختنق»!

وما زلتُ باقياً هنا على المفارق.. أحدثك عن شموس تشرق في المساء، ترسل قصائد لا مبرر لنشرها، أو منع الرقيب تداولها، لأنها في حياتي هي: دمع الفجر، وعين السهر.. وهي صوت الغيد الحسان وهُنَّ يغنين: «يا قمرنا يا مليح... شُدّ حصانك واستريح»!

قهقهي معي.. فقد صرت أستاف الـ «دوماً»، وأغدو كحلقات الماء المتسعة بعد سقوط حجر صغير، وأحياناً أشعر بأنني صارية وسط بحر متجمد!

في بعض الأوقات ـ مثل أي آدميين نتشارك معاً معاناة هذا الواقع ـ أضع حالتي النفسية على ما أسترجعه من ذكريات جميلة، وأطبعه طبعة جديدة.. كأنّ الحالة النفسية تحولت إلى متعة كربونية، فأشعر ـ حينذاك ـ بمتعة كربونية!

يبدو أنني (أعيش) الآن، ولكنني لا (أحيا)... أو أنني أعيش الأيام بواسطة زر.

ذهب الأصدقاء ورفقاء الحوار، وبقي رفقاء السمر... وهؤلاء ليست لديهم صفارة يدهشون بها هجوع الموانى.

ذهب الأصدقاء. دعستهم أنانية المصالح، فتنكروا حتى لأصداء الزمان. صرتُ ألزم غرفتي، وقد لا أرى الشارع إلاّ لماماً، مللاً من روتين الخروج إلى حيث يزداد الإنسان إحباطاً أو سأماً من التعود.

إنها المتعة الكربونية.. في هذه اللحظات التي تفترسني، ثم... أبكي عليها بعد ذلك، لأنها ـ في الغالب ـ أرحم من القادم، ولست في هذا الشعور متشائماً، ولكن... يبدو أن «سلفادور دالي» الرسام السيريالزمي صادق في مقولته هذه: «من الصعب الاحتفاظ باهتمام العالم أكثر من نصف ساعة»!

صراخي: يُشكِّل ولادات (صوت) الإنسان الدائم المحبط في أعماقي، وفي عالم يقف ضد ابتكار الأمنية، ويعمل على إفساد حلم الإنسان... لا بد من أن أقف في وجه هذا العالم أو هذا الواقع، أقاوم الوجع، والقهر، والإحباط، والطغيان. لا بد من أن أنتصر لرأيي، ولمبدئي، ولموقفي، ولو خرجت من رحم الصراخ والعذاب!

وأنا ـ بعد كل هذا الصراخ والعذاب ـ أجد عندي قدرة على التخيّل على منح النفس لكل الدروب المعشبة المكسوَّة بابتسامات الناس، ولكل المنطلقات الزاهية برفاهية السنابل، ولكل الطرق المضاءة بالنجوم المغسولة بالغيث. فكيف أفلح كل هذا التخيل في واقعٍ: صبَخَه؟!

الجمال عندي هو: امتلاك الإنسان لحريته. وحرية الإنسان في رؤيته هي: أبعاد الجمال.

والجمال عندي هو: الرحمة.. حتى لو كان يضيء بها وجه مليح، أو زهرة، أو جدول، أو قطرة مطر، أو انتشار الشفق، أو رقصة ساق وردة أخضر.

صار يبكيني اليوم: موقف بسيط جداً يحدث من عيني طفلة عندما تنهرها أمها.

أو... كأنني - في هذه المرحلة من العمر - صرت أواصل حركة الحياة بداخلي، أو حركتي بداخل الحياة.. بالدمعة، وفي حياتنا هناك من يستحق دمعتنا، وهناك من يقتلها، وهناك من يتعالى على دمعته، فيجفّ من العاطفة!

إن الدمعة.. ليست مجرد «نقطة»، لكنها: رؤية، وبوح، وراحة، و... ربما جموح أحياناً إلى درجة الرفض)!!

# الفصـــل العاشـــر

## مواجهة ما سيأتي

مصباحه: شاحب الضوء، تذوي فتيلته.

تخيُّله: عود ثقاب يحرقه، يرمده. وهذه النسمة الخفيفة تذرع وجه البحر، ترشق «فارس» بالنوى، وبالأصداء الحبيبة. ووجهه يتموج في الحنين للؤلؤته/سارة.. وما زال صدره يمتلئ عشقاً لها، ويفيض اشتياقاً.

فهل أخبر أحداً عن قسوة غيابها عنه، واختفائها في غبار السفر الذي يستهلك أكثر شهور العام؟

لا يعرف وسيلة للاتصال بها وسماع صوتها... هي التي قررت «له» أن تحادثه هاتفياً من أسفارها كلما سنحت لها الفرصة، لكنها حظرت عليه أرقام هواتفها، ومعرفة خارطة سفرها.

لكنه ـ الليلة ـ يفيض اشتياقاً إليها... فهل يبلغها هذا الاشتياق بالتلبثي؟!

في اختفائها، ومن بعدها: صوتها... تخطّى الحنين لها، فقد هجم القلق عليه وشاع في أرجاء نفسه:

خاف على قدره فيها... فهي الجانب المضيء المزهر من قدره.

هذا زمنه: بلا ألوان... وتبقى «سارة» هي: نخلته التي يتفيأ ظلالها وتلقي بثمرها في كل أرجاء حقوله.

بعدها من يكون، ولمن يكون، وكيف يكون؟

أهدته أبيات «محمود درويش» قبل أن تبدأ سفرها الطويل، وعاد يتذكر ذلك الشعر:

- «علقوني على جدائل نخلة/واشنقوني.. فلن أخون النخلة»!

سألها - يومها - عن مناسبة هذه الأبيات ومعناها. فأجابته:

- المبدأ جميل... فقط!

وحده - هنا - في هذا الحصر للمساحة الذهنية، ولانتفاضة الخفقة.

البحث الآن يستهدف: نقطة الضوء المختفية.. أين ذهبت؟!

إنه يتساءل في مدّها وجزرها معه، في ظهورها ثم اختفائها من حياته:

- لماذا تجعل من نفسها في حياة فارس: غودو الذي ينتظره دائماً.. الذي يأتي ولا يأتي؟

عطش الأماني: يكتبه نداء عليها، حتى يتحول ضد نفسه!

رؤية أماني العمر في حياته: وعد عابر يغيب كالذبذبات

الصوتية.. وهو يحفُّها ويتصاعد بها في الزمان المسروق.. وهو يفتش عن وجه: ضاحك/حزين، فينعكس إليه من المرآة!

⊛

جدة/هذه الليلة: تسقيه الطل، وأصداء من إبداع الفجر المتوحد دوماً في موج البحر.

مدينة تتمدد، وتتسع، وتكبر... وكأنها ترقب ركض الأفكار بديلاً عن الركض اليومي بالأقدام: دورة الناس الدموية، والقلب الخفّاق بنظرة، وتدافع موج أبيض نحو الشاطئ والأضلاع.

هذا البحر أمامه قد اختلط بتذكار الأضلاع.. بوجوهٍ تختال أمام المرآة/الذات.. وبآثار العجلات على الطرقات اللامتناهية الغيبية... وبصمت الأشجار تنادي: بوح النسمة عندما تخنقها رطوبة هذه المدينة الساحلية!

اختلط نبض «فارس» بأمواج البحر.. تناهى، تمزق، خاض الرحلة كاملة من ليلة/لحظة، حتى الليلة/ألف، والألف سؤال منثور فوق رمل الصحراء، وزرقة البحر.. وفي سمع «سارة» الذي لا يشعره بأنه يسمع له!

اختلط تفكيره بالأسئلة.

لماذا نشلّع الزمان بالأسئلة؟

لماذا انكسار القلب.. بفعل الحب، أو حتى باسمه؟

لماذا في عصر «الشكوى» من الذي نحب.. ينشقُّ هول من المفاجآت؟!!

كانت «سارة» تردد على مسامعه بين فترة وأخرى مقطعاً من أغنية غربية.. تضغط على صورة واحدة منها: (لمن أشتكي.. وأضع رأسي على صدره!!).

لم تغرب الأسئلة عن تفكيره، وشروده في هذه الليلة الخرساء التي يختلط فيها هو الآخر بالرطوبة... «والآه» التي يحبسها بين ضلوعه.

فجأة... دوّى في خرس الليلة جرس الهاتف، ولم يصدق أنّ هذا صوتها:

- قالت له: كنت بعيدة.. بعيدة جداً.

- قال بغيظ يستفزها: ولِمَ عُدْت الآن؟

- ردَّت بتوتر: لم أعُد لأُشبع جوع انتظارك، وما دريت أنّ فقدك لي يحوّلك إلى كأس يحكمون عليها من منتصفها: فارغة، أم ملآنة.. كل حسب نظرته وشعوره.

- حرص على أن يربط جأشه، وأجابها: يبقى النداء.. زمان آخر لك ولي.. له نصف ملآن، ونصف فارغ، مثل... سفرك هذا!

- قالت بحدة: اتصلت بك لأطمئن عليك. أنت ماذا تريد مني الآن بعد القطيعة؟

- قال: أنت التي اتصلت.. عاشقة هاربة رافضة......

- قاطعته: لا... أنا لست عاشقة، لم أعد أركض وراء الحب.

ـ قال: بل تركضين، وتتمنينه.

ـ قالت: أبحث عن «رفيق»... مللت من الأصدقاء، والجوقة، والحاشية.. رفيق، هل تفهم معنى هذه الكلمة؟

ـ قال: عدت الآن ـ بصوتك ـ لأسمعك: متلبسة بالحنين لدفء رجل بجانبك.. متشفعة بالنداء المخضّل بعفوية آهة الشوق، وبرقصة فرح تؤجلينها في أعماقك حتى يظهر ذلك «الرفيق».

ـ قالت: لا يزال لك مذاق.. فشلت في أن ألقمه نيران النسيان.

ـ قال: ربما... لأن مذاقي تلقَّح من شجرة: سِرنا الوحيد المعلن.

ـ قالت: كأنَّ مهمتي انحصرت الآن في محاولة إسعاد الآخرين، ويمكن... أنَّ منهم مَن لا يهمني أمره أبداً. أنت اصطدت من فمي كلمة: «رفيق» وطوّحت بها. إسمع من فضلك يا هذا... القضية عندي لا تتجمع في وجود رفيق، أو افتقاري إليه، لأ... القضية تتركز في: وجودي أنا... سعادتي أنا... بس، خلاص مع السلامة!



كأنّ «فارس» بعد أن أعاد سماعة الهاتف: واصل تحديقه في وجه الزمان.. كأنه يناديه قائلاً:

ـ الناس يدورون حول زمانهم، والزمان يدور حولهم وبهم.

الناس يهاجرون كل ليلة ـ إما بأفكارهم، أو بأحلامهم، أو

بطموحاتهم ـ إلى غبطة أسطورية، ويعودون كل نهار إلى: خوفهم الخرافي... يعودون في: «اللذة الصُّدْفة»!

وعندما كان «فارس» ـ في مشوار حياته ـ يعدو خلف الظلال: عاشقاً يطارد بسمة أو نسمة.. وعندما كان مرصوداً تحت نجمة أضاءت قمر ليلها الوحيد: كانت لحظات صمته مجروحة الأصداء، وكانت كلمات أشواقه: حبلى بالشجن.

كان يتمنى، ويتمنى... لعل صبابة تضيء مشاعر الآخرين، وكان يهمس من داخله لكل دواخله، قائلاً:

ـ الحياة في واقعها: جدل طويل يفيض سأماً... وكلمات الناس النقية: طوتها التضاريس مع الغبار. ذلك أن الحياة: مناظرة مكشوفة، حافلة بالرُّغْم...

وذلك هو حزن «فارس»... وفي العَدْو خلف الظلال، والرصد تحت نجمة، والتمني المُلحّ على الثقة... فوجئ بتلك الكلمات النقية تنبعث من وراء الغبار وتضاريسه، وتحتضن حزنه.

و«سارة».. لم تعد إليه تلك الليلة عبر الهاتف.

جاءت الليلة الأخرى.. بدايتها: حملت صوت «سارة»:

ـ قالت: هل زعلت مني أمس.. أقصد هل أغضبتك، أم استفززتك كعادتي القديمة معك؟

ـ قال: أنكرت الزعل معك.. لملمت الغضب وشكّلته لأجعل منه فرحاً بعودة صوتك. أما استفزازك فهو عادتك!

هذه الليلة.. فاجأها بمخاض جديد لأسلوب حواره معها،

وهي: لم تفاجئه باستغراقها المعهود معه في برودة ردّة الفعل.. لكنها فجّرت في سمعه سؤالاً لم يتوقعه أبداً:

ـ قالت: أما زلت تحبني؟

ـ قال: ليس ندمي، بل اعتزازي أن قلبي استعصى على التوبة من عشقه لك!

منحها شهادة انكسار قلبه في ابتعادها عنه، وقد غاب في فضاء العمر!

ولم ترد على سؤال/الإجابة. لكنَّ أمواج نفسها تلاطمت مختلطة بحزن نبرة صوته. وما زالت التفاتته صوب زمانها.

لعله تخيلها هذه الليلة من صوتها... وطفق يفرح، يفرح، يفرح.

ردد عبارة النفري: «... وأفرح، فإني لا أحب إلاّ الفرحان»!

ما زال اشتياقه لها: اختراقاً لكل محاولات نسيانه لها.

هي «الأنثى» القادرة ـ وحدها ـ على أن تُنهض من بين ضلوعه: أشدَّ خفقات قلبه وجيباً، ونداءً عليها.

⊛

جاء صوتها ـ للمرة الثانية في ليلتين متعاقبتين ـ ليس هو.. نبرته مبعثرة، نبضها يختلج بالحزن.

أراد أن يقول لها همساً:

- «هل تعلمين أن للنخيل أجفاناً!

فأية زوبعة اقتلعت جفن نخلتك»؟!

ولماذا تتركيني وحيداً في هذا التيه.. وأنت فراشة عمري البيضاء التي تأخذني دائماً إلى نبع الحب؟

هل يصرخ الآن... ينسفح كأدمع أشواقه إليها؟

لماذا - هي - تقول ولا تقول.. كلما حادثته؟

كأنه في غموض محادثتها وسرها المكنون.. ترمي به إلى عالم مأخوذ بالغياب، وعليه أن يعيد اكتشافه... فهل تعتقد «سارة» أن في عمره بقية (طويلة) ليعيد اكتشافها من جديد؟

هنا - في هذا العصر، أو في هذا العالم، أو في هذا الواقع - ظلام على دروب الحقيقة في اكتشاف الإنسان.. وهنا - أيضاً - بياض عظيم يتجلى في (القوة) التي جعلوها هي: معرفة هذا العصر، تصاحبها حرارة.. والأسباب التي يركض وراءها إنسان هذا العصر، أو يفتش عنها: تتركز في أنه ليست هناك وجهة نظر أخرى لغير القوة، حتى في العلاقات الإنسانية. أوَلَم تعد هناك وجهة نظر أخرى يعترف بها الآخرون إلا وجهات نظرهم الذي قد (يَخول)!!

إن «فارس».. يتعذب في أفكاره وتأملاته هذه، ويتذكر عبارة العبثي «بكيت»: «الخيال مات... فتخيل!»

فهل مات الخيال؟

- قال: كل شيء يتذبذب... كل شيء يهتز، فنحن نعيش في عالم: معبوث به!

بقي شيء غير مكنون... إنها التجربة، مهما كانت: سامية أو سافلة. لا بد من أن يشعل الإنسان منها نقطة ضوء لحياته.

ويتلفت «فارس» حوله في المكان، في الجدار... يتذكر أن «سارة» أعادت الاتصال به هذه الليلة، وتسللت لتتركه في هذا الفراغ، وهي تعرف: أن لا امرأة غيرها تملأه في هذا العمر، وتحشده، وتفجره!

خلخلته رعشة شديدة في كل بدنه.

يشعر باشتياق شديد إليها.. بضربات عنيفة من قلبه، وظمأ شقّق شفتيه.

كفكف دمعة تسللت فوق خده، كم هي موحشة الحياة بدونها.

في زمن اللقاء الدافئ الذي كان يجمعهما معاً: اشتعل صهدها وصهده... كانت كل الأشياء طليعة بينهما، حتى عادت «سارة» فقيدتها بلامبالاتها.

ما زال يحبها... فهي مفرداته التي يشكل منها عباراته المفيدة لعمره.

استلقى فوق سريره الوثير، كأنه ينعزل بوحدة روحه، ليفقد السؤال المنادي عليها.

تتجندل أحلامه كالعصافير المقتولة برصاص صياد نزق، وكل هذه «الرؤى» أضحت غربالاً في أوجاع العصر.

يبحث ـ كإنسان ـ عن ذلك النشيد الأروع في صدور الناس المنشغلين بصراع المادة، الذين تناسوا أصائلهم لكثرة ما يتذكرون، و... يفقدون!

وها هي أمسياته قد تعلمت: معنى الخرافة.. من أجراس ذهاب «سارة» وسفرها الدائم، ومدِّها وجزرها في حياته.

استرخى.. لعله يحقق ولو ذلك الحلم: بأنه تركها ومشى... بلا قلب.

لكنها ـ حتى في أحلامه ـ تطلع: خروجاً ساهراً عليه.

صار وقوفه وسط بحار الأسماك المكتظة حول شباك الصياد، ولم يعد له زمن خاص إلاَّ من زمنها هي.

ولأنها كثيراً ما كانت تخاطبه بأبيات شعر مما تحفظه حتى تجنَّ به... فقد ذكَّرته أصداؤها بصورة شعرية قرأتها ذات مساء عليه مترنمة بشاعرية بلند الحيدري:

ـ «هذا أنا: ملقى... هناك حقيبتان

وخُطى تجوس على رصيف لا يعود إلى مكان

من ألف ميناء: أصار.. وبناظري: ألف انتظار»!



من ذلك الزمان/الذكرى... حتى هذا الحاضر/التذكر: يجري دمه مجنوناً لأنه (ضَعْف) إنسان كثيراً ما حشدت لحظات الفرح المؤقتة غروراً فيه. ولأنه (قسوة) إنسان يقف عند النقطة الفاصلة ما بين خروج فصل ودخول ما بعده.. يحاول الآن أن يكون: مواجهاً لما سيأتي في كل الأحوال والحالات حتى الموت، بدلاً من أن يكون ما سيأتي هو المواجه له.

# الفصل الحادي عشر

## غريب برغم القرب

صعب عليه أن يميّز الرملة الذهبية، ولون كفّها حين يتدثر في كفه.

همسته إليها.. هي: لغته الجميلة التي تضيء ضحكتها.. هي بوْحه الذي يغسل أعماقها براحة النفس.. هي غزل الدنيا لها، فهي هذه الدنيا الأجمل في عمره.

التواصل معها. لم يعد حواراً، ولا حديثاً، ولا حتى... همسة.

راودته أصداء من تلك الأغنية التي تتغلغل في الزمان الذي مضى... وأخذ يدندن:

ـ «يا حبّيَ المر، العذب

ليت الهوى وانْتي: كذب»!

تبقّى له منها: أوراق وقلم... وحريته: أن يسكب على الورق نبضه إليها.

هي ـ حقاً ـ حبه: المر/العذب.

هي التي فرضت عليه أن يكون تواصله معها: تخيُّلاً وأصداءً وتحديقاً في البعيد/السراب، وتقهقراً دائماً إلى الزمن الأحلى/الماضي.. حتى ولو كان الماضي هو يوم أمس القريب.

صار يحلم بها... بالتخيُّل وبالتحديق في السراب.

صارت رفقته لها فوق وسادة أحلام اليقظة لا النوم.. هي هذه المرأة التي رفضت منه تعريفها بكلمة: «أنثى». فهل هي ليست أنثى؟

ترنُّ في صمته أصداء من ذلك الأمس، قائلة له:

ـ لا... أكون «أنثى» حين أريد فقط، لكنني دائماً أنا «امرأة».

ـ يقول لها: وهاتان الشفتان المفترّتان عن نداء الحب؟!

ـ ترد عليه: لا تنظر إليّ من شفتي.. تعامل معي كامرأة من حقها أن تختارك أو... ترفضك.

ـ يبتسم وهو يتمتم: أيُّ مجد فرقديّ من رعشة نارك؟

ذلك المساء ـ في حوارهما الهامس ـ واصل تحديقه في عمق عينيها وارتعاشة شفتيها، وتحول إلى ركن صامت.

❁

ليس من أساليبه: الهروب... لكنها حلمه المجنون، وسنبلة أرضه/حنطته التي يسقيها نبضه، وتنكر هذا النبض/السقيا!

أمامه.. تتقصَّد أن ترتدي «الجِدَّة»، حتى وهي تضحك له. ويقف بين يديها وهو مكتظٌ بالأشواق إليها، وهي تبدو أميرة تاريخ وجدانه، لا يقدر تمرُّده على أن يقاومها إن حاول... تصادر كل طقوسه ورياحه.

الحوار معها: سَرْج مهرة... يغرقان في التفاصيل أحياناً، وتُخضّبه - هي - حيناً آخر بنظرة تنتشي من ولهه المتّقد كشمعة العاشق المسهد.

تتعمد في التفاتاتها نحوه: اقتطاف آهته المكلومة.. فتحوّلها إلى أنفاس مغتبطة بوجودها.

وعاد يسكب لها خفقه كلمات في هذه الحوارات معها التي ما تكاد تلتئم حتى تنفلش.. همس لها:

- يا حُبّي المر/العذب: ما هو امتياز صداقة تطلبها امرأة من رجل؟

كيف ينسكب الثلج في شرايين يدي حين تعانق يدك... من يضحك بارداً حينذاك، ومن يرتعش: يدك، أم يدي؟

أكون صديقاً لك، فأبادر إلى عناقك لعودتك من السفر، تماماً كما يفعل الأصدقاء... فهل أنت لحظتها: مطفأة الأنوثة ورجل يعانقك؟

- ترد عليه: لا... لا داعي للعناق، فقط نتصافح!

- يتوتر ويكظم.. فيقول لها: إذاً... فأنت تخافين، وتهربين من ذلك الإحساس الذي تلحدينه في مسمى الصداقة!

بعد صمت قصير، وشرود بنظراتها إلى عمق عينيه.. تقول له:

- في فمي ماء.. وهل ينطق من كان في فيه ماء؟!.. إني أحمل لك مكانة لا يزاحمك فيها رجل.

إسمع.. كل الذي أقدر أن أعمله، أني أسخر من «الأشياء المقيتة»، وأحياناً أتجاوز السخرية إلى حد «التهزيء» الواضح/ الضاحك.. ها؟!.. والغريبة أنه: يمشي الحال، مع أن هذا الحال لا يتغيّر، فهل لديك الرغبة الآن لأحكي لك عني بدلاً من أن تجري بي إلى ظنونك وتلميحاتك وتفسيراتك؟

- قال: كلّي آذان صاغية... إحكي.

- قالت: إحدى صديقاتي الحميمات جداً، وبعد موقف مع أحد «الأشياء المهمة»، قالت لي مذهولة: أنا مندهشة.. كيف تحكين للناس كل شيء بصراحة متناهية، تجابهينهم في وجوههن وفي وجوههم وبرغم ذلك ما يزعلوا منك.. مع أنه من الواضح جداً: أنهم فوجئوا بما قلِته؟

فقلت لصديقتي: أنا أيضاً أستغرب هذا الأسلوب مني، يمكن يستخفوا بعقلي..

لكن... آه يا فارس، يا صديقي العزيز.. الله يعين اللي يفكر، طوب الأرض اشتكى، ولا أدري: لماذا يعتادني الآن صوت نازك الملائكة وهي تقول شعراً:

- «ونحن ما زلنا كما كنا

. . . أولئك الحمقى

الليل يمضي ساخراً منا

والفجر يروي للدجى. . أنَا

نشرب ما نُسقى»!

إسمع ـ يا سيد الجميع ـ نصيحتي لك: لا تفكر.. لا تفكر في الحياة، ولا في الناس.. ولا حتى في حبي، أو حبك لي، لا تفكر، ولكن... إسخر، إسخر، إسخر، إسخر، قدر ما تستطيع.. هذا علاج مجرَّب!

ـ قال: هل هذا ترياقك في سأمك، وسخطك أحياناً على الخطأ، والمائل، والمدجَّن؟!

ـ قالت: أقِنعْ نفسك ـ بالرغم من كل شيء ـ بأن الدنيا حلوة، والناس لطاف... نحن لا بد من أن نصلح أنفسنا علشان نرضى!

إسمع ـ مرة أخيرة ـ عندما تكتب لي.. أكاد أمسك المعاني الجميلة بيدي، وأمتزج بالمعاناة العميقة جداً، فتبدو بكلماتك أكثر من رائع، وكلماتك تعبر عن أشياء أحسها وأكاد أراها «عياناً».

لا تغضب مني... فأنا أعرف أن الحياة مرة واحدة، كما قالوا، ولكني برغم ذلك أشعر أحياناً بأنني «محتاسة» مع كل الذي صار يشكل حياتي.. لا أقدر على أن أتفرغ لحبك لي «آناء الليل وأطراف النهار»!

تجلجل ضحكتها في أرجاء الغرفة... وتهرب بعينيها العميقتين من نظراته، تبعثرهما على الجدار وسقف الغرفة.

⊛

انتصبت قامتها أمامه في منتصف الصالون، وهي تمد يدها تودعه.. والليلة تخطو بساعاتها إلى ثمالة منتصفها الآخر.

وطوى سلالم البيت حتى أشرعت له بوابة الداخل، ويده تبحث عن كتفيها.

قاد عربته حين كان الليل في حشرجاته الأخيرة.. و«سارة» تحتل عينيه حتى وهو يغمضهما قليلاً.

هذه المرأة المكسوّة بالتضاريس المجنونة... تركت له عبارتها الأخيرة في نقيع هذا الليل وهي توصد الباب خلفه:

- خذ وقتك.. استمتع، ترَ الدنيا تركض!

هذه المرأة/سارة.. يتصورها: كونتيسة كادحة في زمن حب المرايا، لعلها أرادت أن تحوله إلى «عاشق عصبي جداً»، وأحياناً إلى عاشق متعصب لها.. حتى ولو كان عدلها: مقصلة لحبه.

هي «أنثى» ذات بهاء ودلال ودساتير تملأ أنوثتها صلفاً للحظة غير تاريخية ولا عادلة لجمالها ولرقتها.

- قال لها «فارس» يوم التقاها من جديد: لا تنتظري. إنني لن أستقيل من نصوص عشقي لك!

لكنه - أيضاً - لم يصرّ على فرض نفسه عليها عنوة بلا اقتدار، وقد حسب أن اقتداره عليها تجيزه له: استثنائية واحدة تحسها هي قبل الحكم بمعرفتها.

يخرج كل مرة من حواراتهما معاً.. وهو يؤكد لنفسه: أن هذه المرأة ذات مزاج انقلابي، برغم يقينه من أنها تشتاق له، وفي الوقت

نفسه تبادر إلى ممارسة «الحذّ منه» معها.. وتعرف أن الفراغ الذي يحدثه غيابه عن حياتها لن يملأه لها رجل آخر، لكنها امرأة ينطبق عليها وصف الشاعر الذي قال: هي «وطن لا يجيء.. وأسكن - بعدك - في لغة ليس فيها جدار»!

يسترجع في هذه الأصداء التي انثالت عليه بعد خروجه من بيتها: كل موقف رائع، وكل صورة جميلة توحّدا داخلها.. وأيضاً: كل لحظات الشقاق والتخلي عنه من قبلها، كأنه ما زال حتى الآن يبحث عن عينيها الأمان، فتتهاوى خفقة الوجد بين أضلعه، ويثور الجرح.

كانت هذه الأرض العريضة ذات مساء، ذات عمر.. هي حلم وحدتهما، وكان يلملم الأزهار باقة للنظرة الأولى بعينيها.

اليوم.. اختلفت «سارة»، واختلف كل شيء فيها.

صارت اندفاعتها إلى مراوحتها بين مشاغلها وهمومها الدنيوية والمادية: هي حياتها... لكن ذلك «المدى» من المشاعر العاطفية فيها: كأنه غاب واختفى وتغرّب بفعلها، وكأنها فرّغته تماماً من النجوى.

أراد في هذا المساء أن يغضبها لتفكر في شيء أودعته أرشيفها النفسي وأقفلت عليه، بينما يرى هو في منتصف ليلها: فيضاً من الأشواق لنفسها يختلط بنظرة عينيها.

يفكر أحياناً وهو بعيد عنها، ويتساءل: هل سيصاب حبه لها بنكسة بعد كل هذا العمر، وبعد كل هذا الإصرار من قلبه عليها؟

وهل هذه النكسة ـ إن حدثت ـ بينهما: عاطفية، أم عقلية؟

فتح أذنه وجوارحه، منذ التقاها من جديد، على ضياع صوته الذي أخذته أمسياتهما القليلة المتباعدة ما بين الصمت والحصار.. كأنها ألقت بـ «فارس» في اليم الهائج والبحر يغرقه، وقد حولته إلى مجرد ثرثرة مملة في لياليها، أو أوحت إليه بأنه صار شخصاً مملاً لها يطاردها.

ويسأله هذا الصمت والحصار: كيف تهون الأيام الأجمل؟

يبدو حصار الصوت كالموت... غريباً هو لديها رغم القرب.

يعرف «فارس» أن «سارة» في يوم ما قررت أنها ستتغير، وقد تغيّرت بالفعل... ويعرف إرادتها، وهي موضع تقديره، لذلك قال لنفسه:

ـ من الهباء أن أطرد وراء سراب... أو هكذا تصرّ سارة!

# الفصـــل الثاني عشر

## أنفلونزا أميـركيـة استعمارية

المساء من حوله يتنفس رتيباً.. مسترخٍ هو في لغة الكون.

يسترجع «آخر لحظة» من لقاء البارحة، ودّعته فيها وهي تمنحه عناق المسافر المتخلف عن رحلة الهناء إليها.

قرر أن لا يثقل عليها أكثر، بعد أن تصلب السؤال في عينيه وهو يُحدّق فيها، لكنه يحتاج إليها حقاً في ما تبقى من عمره، وهي أهم غرسة حب في هذا العمر، وأجمل أنغامه.. هي المرأة التي حملت ذخائرها كلها: أنفاسها، ونبضها، وخفقها.. وقذفت بها في البحر حتى إشعار آخر.

الآن... لديها أولويات لا بد من أن تنهيها، وكان يمازحها قبل ليال عبر الهاتف، فقال لها:

- بخ.. بخ لصلابة الإرادة عندك التي استطعت بها «تأجيل» عواطفك، أو ربما إعادة برمجتها وتوجيهها بالريموت لشاطئ آخر... فأخبريني لأكف عن مزيد من سفح عواطفي!

- أجابته: الحب الذي أشعر به هو «إحساس مرة لن

تتكرر».. أنا أمنع نفسي عنه، وعنك... الحب هذه الأيام يُنزل من قيمة المشاعر التي تحوطه.

ـ قال: ما هو الحب؟!.. كيف يقتنع رجل بعواطف امرأة تقول: إنه ليس الرجل الذي يمكن أن يدخل قلبها لأنها ـ فقط ـ تخاف من الحب؟!.. بقية المشاعر: ما هو اسمها، ما هو تعريفها.. حب أيضاً... كيف؟

ـ قالت: تفكيري.. أن الحب مقرون بالرغبة.

ـ قال: وإذا كان.. فهل الرغبة جريمة؟!.. الرغبة فسيولوجية وليست نفسية. العاطفة: نفسية.. ممكن لرجل أن يحب امرأة ولا يطلب منها تنفيذ الرغبة، ولكن... مجرد أن تقول له: أنت لست الرجل الذي يمكن أن يحتل قلبي، ينتفي الحب.

ـ قالت: أنا لا أفكر في لحظة يمكن أن يحبني فيها رجل... ما أشعر به هو أعمق من الحب، لذلك... أخاف!

هكذا ضرَّجته «سارة» بسيف واقعها، أو... تغيرها، وهو ينزف الشوق لها وهي أمامه، وصدرها بعيد عنه كأنه عطش السنين!

وحدها.. تُشكّل مدّه العاطفي، وتصنع جزره في داخله: حروب ردة على الحب والفرح في نفسه.

عندما تنفيه عنها.. يصرخ داخله فيه: كيف تهربني حبيبتي إلى مدارات المنافقين، وليس في الحب نفاق ولا خديعة؟

لم ينم.. بقي متضامناً مع مناخ «سارة» الكلثومي في الليلة السابقة، يهمس: «سهران لوحدي».. يحاول أن يقرأ فتلطمه عبارة

من كتاب جديد يقرأه: «هل نحلم إلاّ بما كان لدينا... ثم أضعناه»؟

يريد أن يحبها أكثر، برغم محاولاتها: نسف العاشق لها في قلبه.. هي المرأة التي لا ينبغي أن يكف الحب عنها. في حياته تشكل كل الدروب والأصوات في مسيرته، وتصحح كل الأفعال والأسماء.

وهو الرجل.. كرستالها الذي يطلب منها أن تشعله وتطفئه وتكسره. طاقته الإنسانية من تفاصيل أنوثتها، ومن قاموس فكرها، ومن نهرها.

هما ـ معاً ـ توحّدا في هموم إنسان واحد، وتجرّحا بمعاناة يشتركان فيها بالأفكار، وبالرؤية، وبالإصرار على نضج المنطق في حياة ينتميان إلى واقعها المتقيئ دائماً بالصديد، والقهر.. ويحاولان أن يبذرا في تربة أرضهما: محبة الانتماء الذي يعتزان به.

هما ـ معاً ـ صارا يحلمان بالأمان في عصر يتفجر بالإرهاب، وبالخوف، وبغياب الحكماء والمصلحين، جنباً إلى جنب مع تفجر المعلومة والاتصالات... وفي حلمهما هذا يريد كل منهما أن يطمئن على جيل أتى به من الأبناء والبنات، ولا بد من أن لا يدعه يفرّط في قيم رائعة حفظتهما من التعدّي على هذه القيم!

هما ـ معاً ـ تحدثا مراراً عن ضرورة التعامل مع هذا الخوف.. بما يواجهانه ويتفوقان عليه، ولكن... كيف؟

تلك كانت أسباب دموعهما التي تتسلل أحياناً عندما يشتعل الحوار بينهما عن واقع هذا الجيل الجديد، وعمّا يواجهانه في هذا

الواقع، واندلاع قلقهما.. حتى يكادا أن ينسيا لحظة الحب بينهما.

يقفز إلى الهاتف ويطلبها، مفتتحاً حديثاً جديداً بسؤال:

ـ ماذا تفعلين.. أو... ماذا ترتكبين؟

ـ علت ضحكتها وهي تقول: صدقت.. إنه ارتكاب حقيقي، فأنا أتفرج على التلفاز كما تسميه!

ـ قال: حسناً... وماذا يرسل؟

ـ قالت: بل ما الذي صرت أرسله أنا؟

ـ قال: نعم... خبريني.

ـ قالت: هل تعلم.. أن الناس من إدمانهم على مشاهدة التلفاز: انسطلوا!... أو أن الفرجة على التلفاز تؤدي إلى «الانسطال»... هل صحيح التصريف للكلمة؟

ـ قال: لا عليك من التصريف... نحن في هذا التلفاز نُقعنا.

ـ قالت: قناة من هذا الزحام أوردت خبراً عن الأنفلونزا الأميركية....

ـ قاطعها: لحظة.. لحظة، حتى الأنفلونزا صارت أميركية، أو هناك أنفلونزا صدّرتها أميركا «تريد مارك»؟

ـ قالت: لا تقاطعني... أنفلونزا أميركية استعمرتني، والليلة سمعت عنها في التلفاز.

ـ قال: قلتِ استعمرَتْكِ؟

ـ قالت: نعم يا مثقف... صار لي من سنين ما مرضت، والأنفلونزا الأميركية: مرض غريب، وحاقد.. وأنا منرفزة، كل جسمي يوجعني!

ـ قال: طبعاً... ما دام أنها أنفلونزا من تصدير العم سام، لا بد من أن تكون مرضاً حاقداً، لأنها مصدَّرة للعالم العربي.

ـ قالت: أبعِدْنا عن السياسة.. تعرف إنك وحشتني!

ـ قال: الله... وحَشْتِك لزوم العدوى، ولاّ وحشتك بجد؟

ـ قالت: إيه أخبار النتن ياهو.. باني المستعمرات وهادم البيوتات؟

ـ قال: أنت مريضة بأنفلونزا صناعة أميركية.. فأبعدي من فضلك عن اكتئاب: صناعة صهيونية... لا جديد، لا فائدة، لا أمل!

ـ قالت: كم الساعة الآن؟

ـ قال: يتوقف الزمن عندما ألتقيك وجهاً أو صوتاً.

⊛

ركد «فارس» بعد هذه المحادثة الهاتفية مع «سارة».. انبطح أرضاً على وجهه، ورفع ساقيه إلى الخلف كطفل يكتب واجبه المدرسي ويغني: «يا قمرنا يا مليح.. شد حصانك واستريح»!

أمامه كتاب لا يريد أن يكتمل بالقراءة.. استوقفته فيه عبارة زلزالية:

ـ أنا نتاج مجتمع قمعي، وممارسة الحرية بكل أهوائها تحتاج إلى تقاليد أجيال تنعم بها... تقاليد موروثة!

طوّح بالكتاب إلى منتصف الغرفة.. وارتفع صوته يدندن: «مش قلتلك»؟

كأنه الآن يحاول ـ عبثاً ـ استنطاق شيء، حتى ولو كانت (عربة) التاريخ في زمن الصاروخ.

تُرى... هل هو متأمل الآن، أم متكأكئ، يرفض أي استنطاق من داخله؟

فجأة.. قهقه كمجنون في الربع الخالي وحده.

حدق في ظلال ضوء تسلل إلى غرفته من خارجها.. حدّق أكثر حتى تجسد له وجه «سارة» أمامه.. يريد أن يستبقي هذا الوجه تحت جفنيه. يستبقي عينيها الرائعتين اللامعتين بكبرياء عمقهما.

توحَّد مع تحديقه، وبالأصداء، ومع نمنمات ظلال الليل... حتى فجّره سؤال من داخله:

ـ لماذا لا أبكي... لماذا الناس لا يبكون بقدر ما يكظمون الألم؟

كأنه الآن يقرأ «سارة»، فيعرفها أكثر من معرفتها لنفسها.. لكنه افتقد فيها تلك المرأة/الأنثى، الناضجة، المفكرة، الحبيبة القريبة. فهي في رضاها النفسي تجعل منه شهرياراً. هي في شتاتها تتحول إلى لامبالية حتى تشعره أنه يركض في اتجاهاتها المتصادمة.

يتجمَّع في استحضارها تخيلاً كأنه يسافر إليها، والخطوة ما بين

قرطها وكتفها: عُمْر أنفاسه.

في مائه وظله: ميناء يعاني من ثورة الغناء لها.. وما زال يحبها، وهي تعود إليه هذه المرة: برقاً، وخطى مغتربة، وباباً مزلاجه من الفرار.. وما زال يحبها ويرسل مع همسته إليها قسمه:

ـ أنت لن تكوني منافيَّ.. وأكره أن أستقر في شعورك: سجنا أو سجّاناً حتى لظللك... أجيء إليك، أفاجئك كالنشيد. فلا تجعليني قرصانا من غيم وسحاب!

خطواته التي اندفعت نحوها لمرة واحدة فقط، كانت منذ ربع قرن.. تكاثرت ـ جيئة وذهاباً ـ تواصلاً وفراقاً.. وتكاثرا ـ هما ـ خلالها: أولاد، وهموم، ومواقف وتجارب، ونزق وتمرُّد.. وكان الأهم: أن أحدهما لم يندم على ما مشاه، ولا حتى على ما ارتكبه وقد كان في حينه: رغبة لهما ومتعة واستقلالاً، ودفئاً عاطفياً شديد الحميمية... وما زالت في جوانحه، لها هتفة حياة تخصها وحدها، وفي صدره: وشم من ملامحها لا يبهت.

شاركها مراحل نضوجها منذ عرفته وهي فتاة ناهدة نحو الحياة تقفز إلى السابعة عشرة.

هدهدها يومها. احتوى افتراضاتها. تشاركا معاً في ابتكار لحظات جنون وجدانية عبقرية.

جذبته إليها وفيها ميزة رائعة.. هي: هذا التفرد الملحوظ في شخصيتها التي تختلف عن أية فتاة كانت في ذلك العمر... حتى اختلط فيها التفرد بالتمرد وهي تكبر بنضوجها ووعيها.

وصبر على ألوان تمردها، واختفائها وظهورها. لكنها أبقته في حياتها مثل: سدوم، وعمورية، وسد مأرب، والسد العالي، وبرج إيفل، وتمثال الحرية... في الغالب: جعلته سداً، وفي بعض الأحيان تعاملت معه كبرج، وتمثال مشع.

أحبها حتى الوله.. لا، بل كان يتنفسها، أو يتنفس بوجودها في حياته.

حاول أن يتمرد على سلطانها وصولجانها، وأحياناً على ديكتاتوريتها عليه... ومرة أسكتها وهي تزأر عليه، وقال لها مبتسماً:

- قرأت لك عبارة لكاتب مسرحي عربي هو محمد الماغوط.. إسمعيها: «الحرب لا تُبكيني... أغنية صغيرة قد تُبكيني»!.. أنت هذه الأغنية الصغيرة، الجميلة، الدافئة الشجية التي تنفيني وتعيدني للوطن.. كأنّ وجودك في وجودي هو معمار حياتي.

حاول أن يقتني همستها ولا يصادرها. وكان أمامها لا يقف على قدميه، بل على أطراف قلبه وأضلعه، وأطراف رموشه، ويعترف... يعترف: بأنه لن يستطيع العودة من عندها إلى مكان آخر حتى لو كان الجنة!

الآن... يستعيد هذه الأصداء ولا يدري: هل يرتاح بها، أم يزداد احتراقاً وعذاباً؟

هو هذا البحار الذي اكتشفها مرة واحدة، وتمنى أن لا تغرقه في بحارها.

إنها هذه المُطْلَقة في شذا عمره وخصوبته.. من دونها وفي غيابها: يتكسر زمانه، ويصير عمره جافاً... بلا طفولة، بلا شباب، بلا حلم. وتضطره لأن يختفي من أمامها ومن سمعها بعض الوقت حتى تفيض الأشواق، وتعلو «ونّة» القلب.

لقد سقط في ليالي معاناة جديدة في مقاطعة صوتها لسمعه.. اختفت من جديد، وكأنه يجلد قلبه بإصراره على مواجهة صمتها بصمته.

# الفصل الثالث عشر

## اللحظة التي تُبكينا

في طول ذلك الزمان الممل من دونها، في رحلتها الطويلة عن سمعه وعينيه، كان «فارس» يعاني من الحصار، و. . . يشتهي صوتها، فيجسد التفاتات «سارة» في فراغ لياليه منها، فما تلبث الليالي أن تمرع بأصدائها.

كان في حالة رجل مطارَد قال: (أشعر بأن الصدق تجارة خاسرة). . فركض متموّهاً في سلسلة أكاذيب من العواطف العابرة، ومن اغتصاب اللحظة، ومن تفاهة الوقت.

كأنها أسقطته من حياتها للأبد. . وهي تقسو بالغياب، وهو يحرقه الانتظار المؤمل.

تعب أن يفعل وظيفة «المرايا». . تنعكس على صفحته كل الأشياء، لكنه يطمع بأن يكون مرآة «سارة» وحدها. لا يستقبل على مرآته سوى وجهها وابتسامتها، وصوتها وهمستها.

وها هو ـ وحده الآن ـ يعيش ولا يحيا في هذا العالم الذي يشيخ وهو يمرض بعلله.

فجأة... يعصف به الصمت، يُدخله في أصداء من حواراتهما معاً.

كانت تقتحمه بين فترة وأخرى بسؤالها المعاد:

ـ «أنت صحيح بتحبّني»؟

وفي كل مرة تطرح عليه هذا السؤال.. كان يشعر بأنه عاجز عن الإجابة، يريد أن (يصدع) بإجابة دقيقة تصدقها للأبد. فإن قال لها: «والله أحبك» فإن هذا التأكيد بالقسم يبدو أقل من قيمتها ومساحتها في نفسه، ومن حبه لها.

وفي كل مرة، يهم بالإجابة، فيقول لها:

ـ والله....

ـ تقاطعه قائلة: «عارفة... بتحبني، بس مين قال لك إحلف»؟

تعب أيضاً من التفكير فيها، وفي كل ما مضى وكان... ومن توقعات القادم الذي يرجوه: أحلى.

هذه المرة.. يشتاق إليها ليس كمثل الأشواق التي سلفت... اشتياقه: قلقاً وخوفاً عليها، فهي تلملم أفكاراً وتوجسات من المجهول القادم.. فلا أحد يعرف في تلاحق الأحداث من حولنا، وفي ألاعيب خلط الأوراق: ماذا يحدث غداً.. من يقفز، ومن يسقط. من يكسب وما الذي يكسبه، ومن يخسر وما حجم خسارته؟

العالم من حولنا يخضع للعبة الأمم ـ كما فسر مؤلف ذلك

الكتاب الشهير - لكنَّ اللعبة اليوم لم تعد بين يدي: فرسان وزعماء بمعنى حصافة القيادة للعالم ومصالحه... اللعبة تتفق وقذارة الأطماع الاستعمارية في إطار ما أطلقوا عليه بعد تقويض الاتحاد السوفياتي السابق: النظام العالمي الجديد.

حدّثته «سارة» ذات ليلة عن مثل هذه المخاوف التي تنال من مصير أبنائنا والجيل الصاعد... وهما يعيشان في صهد هذه المعاناة داخل كرة أرضية تغلي بالمتغيرات التي تأتي أحياناً، وفي جوانب من العالم على شكل: انكفاء!

فراغ موحش يلف «فارس»... لم تستطع حتى الموسيقى أن تخفف من صفيره في النفس، ولا حتى صوت فيروز الذي يبلسم جراح النفس.

أسئلته المغنطة بالقلق: تترجل هذه اللحظة، وحيرته تتخذ شكل الحياة والأحياء في طبائعهما. وكان يقول لـ «سارة» وهي تبدي له قلقها ومخاوفها:

- دعي قلقنا يكُنْ هو الشذوذ عن القاعدة التي يقف عليها الناس اليوم.. أقصد قاعدة اللامبالاة، والانشغال بالهموم الذاتية حتى النخاع!

لقد اختفى «الفارس» و«الجنتلمان»، والقدوة، والمصلح، والقائد الملهم من هذا الزمان... إنه زمن الكلام، أكثر ما يكون حفاوة بقصص و«حواديت» الآخرين، وأقل ما يكون: تتبعاً للمسائل المعيشة والمعيشية الملاصقة للحياة اليومية.. بما في ذلك: أسعار الفواكه والخضار، و... فوط «أولوز» التي يُعلن عنها في التلفاز

والصحف بلا حياء، وبما في ذلك أيضاً: ارتفاع قيمة استهلاك الكهرباء والماء والبنزين، وقطع غيار السيارات في جنون حوادثها وموت الشباب بها...

أنت، وهو، وهي، ونحن... في حاجة ـ جميعاً ـ إلى شيء مهم جداً في عصر الثرثرة هذا: أن ننصت قليلاً لنسمع الناس.. على الأقل: لنُقنع أنفسنا بأن هناك إنساناً واحداً استطاع أن يصمت بعض الوقت، ولم يعانِ من الإرهاق!

كثُر كلام الناس (اللي ما يودّي ولا يجيب)... القائم في الغالب على الشائعات المضخّمة في محاولة للتوصل إلى الحقيقة المحددة.. وعلى التوقُّع، أو «التصور»، أو الافتراض، ثم... لا نجد حتى مجرد جزء من الحقيقة في ذلك التوقع، أو التصور، أو الافتراض!

إنها أحاديث تتناثر كلما ضم مجلس مجموعة من الأصدقاء، أو الزملاء.

❀

ما زال «فارس» في الشوق الدافئ لها يبحث عن وجوده في داخلها وهو يرسخه ـ بحبه لها ـ وجودها في داخله.

جعلت منه: رجلاً، هَرِماً، أشيب القلب.. لم يكن يدري أنها جعلت الساعات معه: عداً تنازلياً للشفاء من حبها القديم، ليختار بعد ذلك وجهاً جديداً لقلبها!

هي ـ وحدها ـ التي أخبرت الغربة عن جنونه بها، حين صار اشتياقها القديم العاشق، في ساعات خاطفة مزاجية، يذيب ثلوج استرخاءتها معه.

هكذا تفاجئه في أيام تواجدها بمدينتهما.. تطلبه عبر الهاتف لتقول له:

- أَفرِغْ وقتك من كل التزام، و... تعال.

تجعل من اللقاء دائماً وفي كل مرة تجدده: فرصة عمره التي تبدو وكأنها لن تتكرر، وعليه أن يركض إليها، ويقتنص هذه الفرصة.. فربما لن تدعه يراها بعد ذلك!

وفي كل مرة يخرج من ليلتها/الفرصة.. يسأل نفسه:

- ولماذا ألبي دعوتها وكأنها «العشاء الأخير».. لماذا لا أعتذر مرة واحدة، أقول لها: لأ... حتى تكتشف هي: أن هناك من هو قادر على مواجهتها بهذه الكلمة: لأ؟

لكنه لا يقدر... ألم تجعل من كل دعوة تدعوه فيها إلى لقائها: فرصة ذهبية، بعد أن تُباعد بين زمن اللقاء والذي يليه أو ما قبله؟

تحرص «سارة» على أن يكون هذا الـ «فارس» في أيامها الجديدة هذه: مجرد صدفة.. وليس واقعاً راسخاً في حياتها كما كان في أيام خوالٍ، لم يكونا يفترقان إلاّ تحت قرص الشمس فقط، وتتلألأ همساتهما تحت ضحكات القمر، وفي ظلال الأمسيات الندية بحوارهما الفياض بالشجون..

هكذا وجد نفسه في حياتها اليوم: لقاء الصدفْة، والوقت المستقطع في أيامها الرتيبة التي تحفل بتوجهها الذي نمَّته في داخلها منذ أكثر من خمس سنوات لتكون «امرأة أعمال»، رئيسة مجلس إدارة

عدة شركات.. تقابل العملاء والمندوبين، والوكلاء، والمحامين...
وقد بدت مهنتها الجديدة كظاهرة قامت قبل عشر سنوات، ولكنها كانت «ظاهرة» تنتشر على استحياء، وقيل يومها:

مجتمع مبرقع، أو محجَّب.. وصممت المرأة فيه على أن تمارس «البزنس»، ولم يكن مدهشاً أن ينجح بعضهن في تجارتهن ويُقمن شركات ضخمة.. تكون أكثر تنفساً في الاجتماعات والصفقات خارج حدود الوطن.

لقد اقتحمت «سارة» هذا المجال منذ كشر حظها كزوجة عن أنيابه لها، وفشلت حياتها الزوجية.. ولم تكن راغبة في تكرار التجربة في عبوديتها كزوجة لرجل يتسلط عليها.

إنها امرأة تتمتع بميزتين غنيتين في صفاتها ولا بد من أن تستثمرهما: ميزة الذكاء الفطري، أو ربما كان ذكاء مورّثاً.. وميزة الثقافة التي تعبَّأت بها خلال دراستها خارج وطنها، ومن الكتب التي عكفت على قراءاتها بكل ما يتطامن فيها من عشق للمعرفة.

ولعلها شعرت بشيء من المعاناة في بدء اقتحامها لمجالات «البزنس» والعمل التجاري، مما أثَّر على الجانب العاطفي أو الرومانسي في شخصيتها العاشقة للقراءة، وللمعرفة... ولكنَّ قدرتها على ارتداء الصرامة، أحياناً، أضافت إلى شخصيتها: ذلك التمكن المذهل فيها من الحسم حتى مع عواطفها.

لذلك... بادرت «فارس» في أول اللقاء الذي جدَّدته في معرفتها له، فقالت له:

- أرجوك... اعتبرني الآن لا أكثر من ذكرى جميلة في حياتك.

ـ يومها.. سألها: يعني رجاؤك هذا.. أن أنسحب من حياتك للأبد؟

ـ قالت كأنها تستدرك ولكن بحذر: لا... لم أطالبك بالانسحاب، بل ما رأيك لو نبقى معاً في إطار الصداقة؟

ـ سألها: هل تعتقدين ببناء صداقة على أنقاض العشق؟

ـ أجابته: كانت تجربة بيننا... فلنخضْ هذه التجربة الجديدة.

ـ قال: أنت تتعاملين مع «الحب» في حياتك على أنه مجرد تجربة.. أما في حياتي، فالحب: معاناة، وحياة، وصهر، وقيمة... التجربة في تعاملك معها: لا أكثر من عبور من شاطئ إلى آخر.. أما التجربة في تعاملي معها، فهي: اكتشاف، وحلم، وأشواق، وعطاء.

ذلك هو الفرق بينها وبينه.. منذ تعاملت معه في إطلالتها الجديدة عليه فاعتبرته: مجرد صدفة، ووقت مستقطع من وقتها الأصلي والأساسي الذي حظرت عليه دخوله... بينما بقيت قيمتها في نفسه راسخة باقية من ذلك الزمان القديم الأجمل الذي جعل نفسه فيه: صَدفَة لها.. خبّأها في عمقه كالسر، كالأماني الحميمة، كاللؤلؤة... وكلما ضربته أمواج الحياة وهي ثابتة في جوانحه، يجد قلبه بوجودها فيه: قيمة، وضوءاً، وذاكرة للعمر!

معها... كان يشعر بالخوف كله، وبالأمان إلى ما لا نهاية.. وكانت ـ أحياناً ـ تصر على أن تفهم منه ما لا يقصده، ويعذرها.. لأنه يحبها، ولأن معاناتهما واحدة.

وتدخله أحياناً في حيرة تعصف به.. فلا يكاد يبين الحب فيها من التسلية، أو الوقت المستقطع.

وتعوده أصداء من حواراتهما معاً... ويتوقف عند سؤال طرحه عليها ذات مساء وداعي طلبت منه فيه: أن يخرج من حياتها. فلا وقت لديها للعواطف..

كانت متوترة، وتبدو أكثر إحباطاً.. فسألها:

- هل تخشين مني إلى هذه الدرجة؟

- أجابت: إن كنت أخشاك، فلمن أطمئن؟ سنوات طويلة عشت الأمان معك.. ملّكتك نفسي لأني أعرف صونك لها، وأرجوك من فضلك، لا تقل: إني أستخدم ذكائي معك.. الإنسان يستخدم ذكاءه مع من يتوقع منه الأذى!

- قال لها: ما كنت يوماً معك إلا بصدقي.

- قالت: أنت قلت عني قبل أن ترحل بنا الأيام الأولى في الغياب: أنت واثقة إلى حد التصرف... نعم وثقت بك وبنفسي، ولكني الآن تغيّرت، لست تلك المرأة التي عرفتها في بدء إطلالة كل منا على الآخر... ألا تشعر أحياناً بأننا كبرنا، ففيم انتظارك للحب يا صديقي؟

قهقه فارس ونظراته تطوف بوجهها.. حتى فاجأته دمعة كانت تترقرق في عينيه، بادر إلى مسحها بسرعة حتى لا تلحظها «سارة»، وكأنّ الدمعة لم تكن ترغب في أن تكف... وفي صمته ردّد عبارة جذبته أثناء قراءته قبل ليلة، فهمس:

- «اللحظة التي نبكي فيها أمام الروعة.. اعتراف بأن كل حياتنا السابقة كانت صحراء.

هكذا يبدأ الجمال بأن يُبكينا تأثراً به، وينتهي بأن يُبكينا حسرة على راحة بالنا قبل أن نعرفه».

# الفصل الرابع عشر

## القرفانة!

من أعماق صوتها، الذي افتتح انتباهة سمعه، أبصر لها ملامح رسمها خياله عن: ذلك السباق المميز في داخلها بين عقلها وعاطفتها... ومن منهما لا ينتصر على الآخر، بل يتواءمان ويتكاملان؟

هي «امرأة» - إذاً - تصر على تأكيد حق قيمتها كإنسان في شريان مجتمعها الذي علّم المرأة، وأدخلها الجامعة ليعزلها بعد ذلك في وظائف محددة بأعمال البيت اليومية!

وهذا الإصرار.. دفعها إلى جولات من النداء على رجل يثق بنفسه أولاً، ولا يوظف حماسة الكلام وحدها لإرضاء مضمونها الذي صمم على أن يستحوذ عليه.

مضمونها.. يتشكل من: إنسانة مُتعبة بنضجها، في سطحية الكثير من شرائح مجتمعها المخملي.

وتعبها هذا يطرد خلف أفكارها، وتأملاتها، ورؤيتها، ورؤاها... يجلد تارة، ويحثّ تارة أخرى.



في ثمالة ليل سهَّدها فيه: القرف، والوحدة.. سألت (سارة) نفسها بشجاعة ومباشرة:

- تُرى... لماذا لم أفكر في «احتياجي» كأنثى لرجل؟

نعم... أرفض أن يطلق عليّ رجل صفة «أنثى» بتحديده الذكوري لمطلبه مني.. لكني في وحدتي، وحميمية لحظاتي، أحس بأن «أنوثتي» تطغى، وتنغل في عمقي كالحمم.. وأصير لحظتها مجرد «أنثى» تفتش عن دفء رجل تحبه حتى الثمالة!

تُرى.. هل رمتني الشيخوخة بدائها في سن مبكرة؟

تشكيلها الإنساني.. يبلور تجربة عميقة في العمر، لأنثى داخل سياج، كانوا يسمونه في بدء عصرها: «عش» الزوجية.. ولم تجد في جنبات هذا العش: الأمان، ولا الحنان، ولا الفهم.. بل كانت تبحث في ذات مَنْ (عيّنه) أهلها زوجاً لها: عن ذلك التوحد العاطفي، والتكامل الإنساني.. سنوات طويلة، حتى تمردت أخيراً على «العش» الذي تحول إلى قيد، وعلى «التعيين» الذي أثمر للشركة: أولاداً، وبدد الحب والإلفة: الأكثر عمقاً في هذه الرابطة الإنسانية.

واليوم... تحس بأنها صارت قاسية.

فهل كانت في الوقت الماضي: قاسية بطبيعتها؟

أم أن القسوة جاءت مخاضاً لكل هذه المعايشات لواقع بليد ومرهق، ومحاصَر بتهمة العيب دائماً؟

لم يعد هناك في حياتها اليومية، ولا في حياة من تعرفهم،

ومن لا تعرفهم من مجتمعها.. ما هو: جديد، أو مثير، أو متطور، أو مفرح... لم يعد «الحلم» غفوة بعض يومها، ولا التخيل الماتع للغد بعض ليلها.

حتى أنها فزعت من حقيقة جديدة في حياتها تقول:

لقد انحسرت عن حياتها الصديقات.. لم يعد لها إلا صديقة أو على الأكثر: صديقتان!

صار لها برنامج يومي بليد، وسمج جداً... منذ أن تصحو من نومها قبل منتصف النهار بساعة، أو ذلك الحين.. وحتى منتصف الليل بساعات.

الجديد في حياتها قد انحصر تماماً في «الكتاب».. صارت مدمنة قراءة.

عافت مجتمعها المخملي، وحفلات السهر، واستعراض أحدث الأزياء وصرعات الموضة، والنميمة في الأخريات، والغمز بحكايات خاصة عن بعضهن... ولكل امرأة حكاية خاصة قد تقولها لأقرب صديقة إليها، وقد تحبسها في صدرها خوفاً من اللوك والولغ في تفاصيل من الخيال.



ولكن... يبقى في حياتها حتى الآن: ذلك الرجل الذي دخلت حياته مع انتباهة سمعه لصوتها.

وصوتها كما وصفه هو لها: يوحي بدلالات، وينضج، ويحزن الأسئلة.. متمازجاً هذا الايحاء مع فيض الصوت الآخر لها، هذا

الذي يسكب دفء «أنوثة» محفوظة بحرص في خزانة العمر التي لم تسمح لأحد بأن يقترب من رتاجها... وإن كانت قد سمعت طَرْقاً متلاحقاً على بوابة أنوثتها، وما زالت تسمع... وهي تكتفي بالإصغاء لهذا الطَّرْق، وكل غطاء أنوثتها جعلته ينساب من ابتسامتها.. ومَنْ اصطفته: منحته ضحكتها المتماوجة كبحر يستقبل سطحه شروق الشمس!

وتحنُّ إلى صوت هذا الرجل «فارس»، وتهم بالقيام حيث الهاتف لتطلبه، ولتسمع صوته، و... ربما لتدعوه إلى لقاء ينتشلها - على الأقل! - من هذا القرف، والملل، وفساد الحلم، وانبطاح الحياة في إحساسها.

إنها تبتسم الآن في هذه اللحظة التي تسترجع فيها أصداء صوته، وهو يهمس في أذنها يوم اللقاء الأول بينهما:

- أشعر بأنك «الخطر» القادم إلى حياتي.

أراك تتسللين إلى عاطفتي ولا تقتحمينها.. «تتخشخشين» حتى في حزني، وتمنحينني ضحكة التفاؤل.

تعاطفت مع «تجربته» التي أرهقه على امتدادها: الالتزام المضني والثابت عليه.

اقتربت من «فكرته» التي تراوده.. مع إيحاءات صوتها إليه بفكرة جديدة.

وتسأل نفسها الآن في وحدتها، وقرفها.. وفي غياب صوته عن سمعها:

ـ هل أردت أن أستحوذ على العاطفة، والحزن، والتجربة، والفكرة.. بابتسامتي، وبضحكتي/التفاؤل ـ كما كان يصفها ـ وبإصراري في ندائي على رجل: أجد في سمعه، وفي احتواء نظرته لعمق عيني، ذلك الفهم المكمِّل لرؤيتي، وذلك الدفء الذي تفتقر إليه حياتي وحياته معاً؟

تشعر الآن بأن همومها لم تعد تنحصر في وجود رجل أو في غيابه.

لقد شكلت حياتها على نمط من استقلال الشخصية.. ولا بأس من أن تعاني من الوحدة ومن الصمت، ومن الصقيع.

لكنَّ «القرف» الذي يغمرها، لم يكن بسبب افتقادها للرجل.

«القرف» أكبر من ذلك، وأعمق... إنه ينبع من هذا التفريغ لعقول الناس، ومن هذا التمدد الأفقي والرأسي للغرض، أو حصر الحياة في الغرض، والرغبة، والأنا.. ومن هذا الصمت الذي يسود أرجاء بيتها وحدها. ومن تفاهة الكثير من الممارسات.

آهٍ.. «القرف»! من تشويه معاني الحياة، وارتكاب «الأخلاق» كعقاب!



لكنها ـ رغم كل ما تحسه من قرف ـ لم تكن فقيرة من الدفء.

لقد رأت نفسها مرة في ذات «رجل».. جذاب بمعانيه، وبشخصيته القوية، كأنه سحر لها، وبأفكاره التي يستنهض بها طبيعة تطور الحياة!

فرحت بتقديره لقيمة الإنسان... وقد جرحه ذلك الاستنهاض في مراحل تجارب عمره، من دون أن يركع إصراره في داخله.. من دون أن يعطي حدبه وسعيه على درب اختطه ليحقق تلك المعادلة الصعبة والرائعة.. بين الحياة ولو كانت بالموت، والموت في تفاهة الحياة!!

تلك ملامح «رجل»... سرقتها فجأة من تأملاتها، ووحدتها.. واقتحمت بوابتها بشكيمة الرجولة.

لكنها... ما زالت تشعر بهذا «القرف» يفيض من نفسيتها، ومن حولها.

وكأنها... عادت مجرد «أنثى» تشبه الأخريات، تفتش عن دفء رجل من خلال لحظات تفريغ الرغبة، وتفريغ لهموم الحياة، ولقسوة الزمان.

وتسمي هذه اللحظات: (الاحتواء) من الرجل لضعفها، ولحنانها الذي يشع من صدرها بلا حدود لمن تحب.. برغم شعورها في هذا (القرف) بأنها صارت: قاسية، وربما عنيفة أحياناً في ردودها.. وربما «باردة» كثيراً في تلقيها للعواطف، وفي منحها للآخرين.



حادثها «الرجل»... هذا الذي تغرقه كثيراً في عمق بحارها المتلاطمة حتى لا يتنفس، والذي يطفو أحياناً على حفافي نفسها، كأنه يتحدى بحارها وغرقها!

فوجئت بصوته عبر الهاتف.. يقول لها:

- لماذا أنتِ مثل الدنيا: متقلبة!!

ولا ينتظر ردها.. بل يقفل الخط بينهما، وتنهض هي من مقعدها إلى غرفة ملابسها، تتهيأ للخروج وكأن صوته كان مجرد «ورقة» بعثها إليها بتلك العبارة فبادرت إلى تمزيقها لتخلص تماماً!

وهو.. كان يخلد إلى التأمل كثيراً، لعله يستوضح أعماقه عن بعض ذلك الاندفاع نحوها.

حاول كثيراً أن يبددها في غيوم نفسه.

حاول أن يجعلها: غيمة راحلة إلى البعيد.. هي القادمة من الأبعد.

طعنها يومها في قلبه.. بخوفه عليها ومنها.. فقاطع سمعه صوتها، وغاب بعيداً عن بحثها عنه.

جعلها في عمره: ذاكرة مفقودة.

وطفق يبحث في ذاكرته عن عشرات الملامح، والابتسامات، وسوامق الأنوثة، ودفئها!

لكنَّ الزمان من خارجه.. أعادها إلى سمعه في داخله برغبتها ذات مساء.

أراد أن يقول لها: ماذا تريدين الآن؟

كانت قد أعلنت صوتها على سمعه عبر الهاتف: مرهقة، وأنانية.. تدلع نفسها على حساب شظف وجدانها الذي شعرت به في تلك اللحظات الحميمة جداً بينها وبين «أنوثتها».

وفي محادثة عودتها إلى سمعه.. خُيل إليه أن صوتها يبترد في سمعه، أو ينسكب بارداً في الوقت الذي كان يحس بكل حرائقها في الداخل.

كان يمتلكه شوق إلى استفزازها، حتى تستقر كلماته في معانيها، وحتى تعود النبرة المخبّاة تلك في صوتها الذي تحرص على أن يشيع سمعه مرحاً، وانطلاقاً... نبرة حائرة يتمنى أن تهدأ، وتأمن في أحضان سمعه!

لكنَّ ذلك الابتراد ما لبث أن اشتعل في النظرة الأولى المباشرة بين عينيه وعينيها!

رآها - بحياتها - تقف على قرص الشمس في رابعة النهار... وأرادت منه أن يقف معها - في الحياة - على قرص الشمس لحظة الغروب!

لقد عبّرت له عن احتياجها الآني له... وقد كان احتياج رغبة، واحتياج بوح... وهو دور مزدوج ومرهق للرجل، خاصة عندما (تفرضه) امرأة!

ورآها - بجمالها - المبثوث في ضحكتها، وفي عمق عينيها الواسعتين، وفي سموق قامتها.. كأنها تمرجح عينيه، وتطوح برأسه في النظرة الأولى المباشرة له.

ولم يحسب أنها بتلك النظرة قصدت أن تثير التحدي في داخله، لا أن تشهر في وجهه تحديها له بالدخول إلى جنون الخفقة المفاجئ.

لعلها أرادت أن تقيم جسراً سريعاً بين تفكيرها وتفكيره.. على الأقل في تلك اللحظة التي شهدت مولد النظرة الأولى المباشرة بعد سنوات الغياب، أو القطيعة، أو التناسي!

ترى... ماذا تريد منه الآن؟

- قالت له: لا أريد منك شيئاً مما تتلمظ عليه عندي، أو تطمح فيه.

أريدك حين أحتاج إليك فقط.. حين أشعر بعطش للحوار الدافئ مع رجل يبرع في الحوار.

❁

وماذا يريد هو منها بعد موجات القطيعة والوصال، والمدّ منها نحوه؟

هل أصبحت - حقاً - كما وصفها أخيراً: مثل الدنيا... متقلبة، وباردة، مقرفة هي الأخرى في أكثر الأحيان؟

وهل «القرف»... هو الدخول في التقلب؟

لقد شعرت بأن صوتها - بالفعل - قد ابترد في سمعه.

صرخت بين جدران غرفة نومها:

- أوف... قرف، حتى الحب: قرف!

رن جرس هاتفها، وترددت في الإجابة على ندائه.

رفعت السماعة.. وهي تسأل بحدة:

ـ مين يتكلم؟

ـ قال بصوت مسموع في أذنيها: لا أنا أريد منك، ولا أنت تريدين مني شيئاً... لقد انتهى بيننا ذلك «الاحتياج» الشديد.

ـ قالت له بسخط: قرف... حتى أنت قرف، مقرف!

ـ قال: لعل العبارة الأدق وأنا أتجاوز شتيمتك... أن في داخل كل منا إرادة متحدة على شيء.. على حلم، على أمنية، على حوار يطول ولا يتقطع، ويتجذر ولا يقتلع.. على رغبة تنتهي بزوال الاحتياج الآني!!

# الفصـــل الخامس عشر

## أجراس في حياتها

البارحة... افتتحته «سارة»/ مرحلة أخرى أعمق في حبه لها.

ربما تشابهت ساعات البارحة، قعدتها، وقتها... كتلك الليالي الخاصة جداً والمميزة التي يسميها «فارس»: الليالي «الأصنص» وهو في دفء حفاوتها به منذ بدأ سلامها الجديد معه

البارحة... افتتحها بمزحة أراد أن يُضحكها بها وهو يقول لها:

ـ يا خوفي أن يكون سلامك الجديد هذا مشابهاً لسلام الشرق الأوسط، أو لهذا السلام الذي تريد أميركا فرضه على العرب لعزة إسرائيل!

حدقت في وجهه، ولم ترد على تشبيهه.

ـ سألها: هل أغضبتك؟.. لا أقصد بالطبع أنني أمثل أهلي العرب، وأنت...

ـ قاطعته بغيظ: طبعاً... ولا أنا إسرائيل يا فصيح.

ـ قال: نحن نمزح... ما الذي أغضبك؟

ـ قالت في شبه شرود: لم أغضب منك.. لكنَّ تشبيهك مؤلم. على الأقل أعادني إلى هذا القولون العصبي اليومي الذي «يمعص» معدة العرب وأمنهم والمسمى «إسرائيل».. أتساءل: إلى متى ندور في ساقية هذه المقولة: «يبقى الحال على ما هو عليه»؟.. وإلى متى نبقى ندور نحن العرب حول أنفسنا، ضعفاء، متخاذلين.. كلمة أميركية تودينا، وكلمة تجيبنا؟

ـ قال: ظهر عليك الانفعال.. هل لاحظت نفسك أنك تخطبين؟

ابتسامة باهتة رسمتها على شفتيها، وقالت بصوت واهن:

ـ يا فارس... تعبنا، وهناك من له مصلحة في هذا التعب، وبالذات من ربعنا العرب.

ـ قال: شيء طبيعي أن يفعل التشرذم بنا أكثر مما نعاني منه... فهل نحن جيل متشرذم؟

ـ قالت: المشكلة لم تعد تنحصر في جيل واحد.. منذ الخمسينيات، وربما قبلها، والحال يتطور إلى الأسوأ.. فالتشرذم فينا «عصر»، وليس «جيلاً».

تسللت يداه إلى كفها... اختلس كفَّها من انشغالها بالحوار، واحتوته يداه.

ركَّزت نظرتها في عينيه.. كأنها تسأله: ماذا تفعل؟

اتحدت ابتسامة طيفية على شفتيهما معاً في لحظة من هذا التوحد الوجداني.

الآن... يسترجع أدق ثواني البارحة، وهو يشعر بأن افتتاحها له ربما يحوّله إلى رجل نرجسي، يحب نفسه لأنه بعطائها المحدود هذا قد بلورته هي في معنى جميل تعاملت به معه.

هكذا يكتشف «فارس»: أن العلاقة الخاصة الحميمة بين امرأة ورجل، لا يُشترط عمقها دائماً بالتواصل الجنسي، وإن رغب فيه طرف عن طرف... بل الأعمق: أن تكون بين الاثنين لغة موحَّدة، وانتماء إلى فكرة أو قضية حتى لو كانت مجرد (نشوة)، أو أن هذا الانتماء يخلق النشوة في الذاتين.

حتى وهو يتأمل وجه «سارة» البارحة... كان يحدق أحياناً ويتشهى أن يمدّ كفّيه ويؤطر وجهها بهما ويقربه إلى وجهه أكثر، ليصبح الوجهان واحداً. وكان ـ حينذاك ـ يفعل ذلك بواسطة إغفاءة كفّها بين كفّيه... فقط!

همس لنفسه في هذا الـ «فلاش باك» للبارحة:

ـ نستطيع أن نسمو إذاً... بالتخيل إذا أردنا، وبالممارسة إذا اشتهينا برغبة الحب.

«آهِ... ما أطيبه بددا»، كما شَعر سعيد عقل، وأطربت فيروز... كرر لها هذه اللوحة الشعرية البارحة وهي في حياته لم تكن أبداً الـ «بدد» منذ عرفها، لكنها هي المطر الذي يسقي جفاف نفسه حتى الارتواء... بل وحتى تساقط الثمر!

كثيراً ما قدّم لها هذا الصدق منه: ابتسامته ودمعته، آهته وشهقته للفرح بها، حزنه وشجنه.

لكنها الآن ـ في إسقاطات حواراتها معه ـ كثيراً ما تُشعره بأن الحب لديها مفقود، أو مرصود... أو لعلها حوّلت الحب في حياتها إلى ابن ضال، وأن حياتها صارت تخضع لجرسين: جرس الباب وجرس الساعة. أما جرس الهاتف فإنها تتعامل معه بكثير من الإخماد له، والقليل من منحه حرية النداء. وفي حياة الأجراس هذه التي حبست «سارة» نفسها داخلها، قد يصرخ أو ينفجر فجأة فيها: جرس الحب.. أو لعله: جرس (الإنسان) فيها. وقد نبهها «فارس» إلى هذه الأجراس في داخلها خلال حواراتهما، وقال لها:

ـ لا تدعي ما في داخلك من مشاعر يوجه لك تهمة اضطهاده على الأقل، فلا تدرين كيف تكفّرين عن ذنبك نحو الحب، ونحو نفسك وعاطفتك يا... مريم العذراء!

❁

ضحك «فارس» لخاطرة.. حين كان يقرأ منتصف الليلة التالية لـ... (البارحة) عبارة لكاتب.. تمنى لو حملها الآن ورشق «سارة» بها كوردة، ويصفها هكذا:

ـ (أنتِ نسمة معارة إلى الحقيقة الأبدية).. قالها «عقل العويط»، والتقطها... ومشى بها محاذياً للؤلؤة/سارة التي ما زالت تمشي في وريده مختلطة بدمائه (كما يمشي القدر)!

الله عز وجل خلق هذه الـ «سارَّة» لحياته مرة واحدة ذهبية، وارتفع بها فلم يشأ ـ سبحانه ـ أن يستنسخ منها امرأة تضاهيها، وقد لا تجيد مواكبة بياض الروح والنفس كإجادة «سارة»، وإلاَّ... فأين تختبئ مثيلتها، ولو وُجدت... فلماذا اختبأت؟

لأن المثيلة أو الشبيهة، أو النسخة الأخرى ـ لو وُجدت ـ فلن تكون: طبق الأصل، ولا طبق الروح والنفس، ولا طبق هذا العقل المثقل بذكائه حقاً!

لقد أحب «فارس» هذه المرأة المميزة في حياته، وقاتل من أجلها.. حتى خُيّل إليه أنه المقتول بها أحياناً، القاتل لها، الشهيدان معاً ـ هي وهو ـ الممتزج بها وهي تحاول أن تخلق اليقين بالعجز، والخلاص بالتوحد الإنساني.

صارت هذه المرأة في حياة «فارس»: نظافته ونصاعته، وضوءه ورحمته، وذنبه المغفور، ودعاءه المستجاب، وخفقته لامتداد حياته، وشهقته الأخيرة عند الموت.

أما «سارة» في الجانب الآخر القابل لعاشقها هذا/ فارس... فهي تتقصَّد في تعاملها معه: إحباطه أو كبحه عنها، وامتصاص لحظة فرحِهِ بها كاسفنجة، وأحياناً يشعر بأنها ترمي إلى تضئيله.

وتزحمه أصداء حوار «مستقطع» بينهما، تماماً كالوقت المستقطع الذي تمنحه له ليراها:

ـ قال لها: أنت الختام/ المِسْك لعشقي.

ـ قالت: هل هذه قناعة عقلك بي.. أم جنون قلبك؟

ـ قال: أنت المرأة التي وحَّدت اشتغال عقلي وقلبي بك.

ـ قالت: ولكنك أنت «فضيحة»... ما يلبث الناس أن يعرفوا قصتنا بصراخك كمجنون ليلى.

ـ قال: تتهمينني دائماً بأنني أسرّ بنجواي عنك للقمر، والقمر

هو «إعلامي» المباشر للناس.

- قالت: هذا شعر... لكنك تبقى «فضيحتي»، وصدقني... عجزت على أن أخلّص حياتي منك.

- قال: في إمكانك أن تعلنيها صريحة لي، فتقولي: أُخرج من حياتي، ولن أزعجك بعدها.

- قالت: حاولت... طلبت منك أن نكون أصدقاء، والأصدقاء اليوم لا يلتقون كثيراً ولا دائماً.

- قال: إنَّ ما يُغرس في أعماقي لا يمكن أن يُقتلع، وأنت تُشكّلين في قرارة عشقي وختامه المسك: جذور شجرة عمري الوارفة بالحب.

- قالت: أنت تريد مني «الأنثى».. ومعناه: أنك تحبني بعيونك لجمالي، وسأكبر في العمر وينتهي هذا الحب.

- قال: عفوك... هذه نظرة محدودة ضيقة لمشاعر إنسان لازمك وطاردك أحياناً أطول من عمر الشباب، فلا تظلمي نفسك عندي!

صمت قليلاً... ثم استطرد يقول لها:

- وأين جسدك مني حتى تربطيني باقتناص الأنوثة فيك.. ولماذا تقهقرينني إلى هذه الدرجة؟

- قالت: هذه طبيعة النفس البشرية.. وزادت عليها طبيعة عصرنا السريع، والمادي، القائم على الرغبة السريعة.

ـ قال: حتى إن تحدثتُ عن جسدك من خلال تركيزي على أنوثتك، فيحكمني التبتُّل أمام هذا الجسد وليس الشهوة المجردة من إحساسي بك... فهل أسألك: ما هو الجسد؟

لا تردين.. بل دعيني أجِبْكِ: الجسد.. حب في اللحظة التي تتحد بين (إنسانين).. الجسد: جنون، تطابق، قانون، اقتحام، توحش، توتر، استثناء، أمطار، قراءة.. الجسد: نص إنساني، لحظة ضوئية، استرخاء.

الجسد ـ يا سيدتي ـ وجع إنساني يتفرغ، وذاكرة، وتشكيل جمالي، وإحساس قبل أن يكون شهوة... أي إنسان يرغب في أن يشفى من ذاكرته أو من جسده بكل الإحساس، وليس بكامل الممارسة.

هناك فرق. فالتجانس بين إنسانين متحدين: قانون، وتوحّد روحي في البدء حتى الانتهاء.

كان من الممكن ـ بعد استطراده هذا ـ أن يخفض رأسه، ويبتلع محاولتها نزع قشرة جرحهِ القديم معها لتدميه من جديد، ولا يحاورها في ما جعلته هي: احتجاجاً وغضباً.. لكنه لم يرد أن يجمع لها الأوراق المبعثرة في كل مرة، بل أصر هذه المرة على أن يرفض محاولتها لتحويل كل ورقة إلى مطفأة لذاكرتها، كمطفأة السجائر.

أراد ـ أيضاً ـ بتفجير هذا الحوار معها، أن يتمرد على بقايا الخيبة التي حاولت أن ترميه في قاعها... برغم أنه لم يطالبها بشيء من ممتلكات جسدها، ولا حتى قبلة، ملتزماً باحترام الحدود الجديدة التي أقامتها حولها كلما وقفت أمامه.

الرغبة بين امرأة ورجل: ليست انتهاكاً إلاّ إذا كانت: اغتصاباً، أو... شهوة مجردة.

وهكذا صار «فارس» منقوعاً في هذا الوقت «المستقطع» الذي فرضته عليه «سارة»، فلا يراها إلاّ عندما ترغب، أو تسمح له، أو... حتى تحنّ عليه.

ولا يتوقف جنونه بها... ولم يعد لليل منتصف ولا آخِر، لليل: أول فقط، وذلك عندما تقول عبر الهاتف: تعال... فيتحوّل الليل الأسود، الغامض، الساكن، الموحش.. إلى: قوس قزح وأنهار من لبن وعسل مصفّى.. واللحظة في لقائه بها: تكبر لتصير رقصة.. والكلمة في الحوار المتبادل بينهما: تشمل الزمان والمكان، لتكون قراءة مرتّلة لكتاب قلبه/ هي!



في الليلة الثالثة... عاده صوت «سارة» مفاجئاً في خلوته مع نفسه وتخمُّر صمته.

ـ بدأته الكلام قائلة: «أراهن» على أنك جالس تفكر... صح؟

اسمع مني يا فضيحتي التاريخية أنت.. لا تفكر، أوكي؟.. أرجوك، أطلب منك أن ترتاح، وأن تسخر... هذا علاج مجرّب، وعلى الرغم من كل شيء ـ وحتى مني ـ فإن الدنيا حلوة، والناس طيبون، وإحنا لازم نصلح أنفسنا علشان نرضى!

استرجعت حوارنا قبل ليلتين، وأحسستُ بأني أعرفك أكثر، أنت وحياتك.. أرجوك تحدث معي، قل لي أكثر، أو... أكتب لي.

واصلت بدء كلامها ضاحكة تقول له: أرجوك.. لا تقاطعني، خليني أحكِ، أنت يبدو ما عندك وقت، أو تريد أن تأخذ وقتاً خاصاً لنفسك، وعلى فكرة... لا تتردد (خذه) هذا الوقت، ترَ الدنيا مثل ما قلت لك قبل الآن: تركض!

البارحة ـ في خلوتي مع نفسي والقراءة التي تعرف أني أحبها حيل ـ قرأت... ها؟

إسمع:

ـ «إني أحبك حباً.. ليس يبلغه

فهم... ولا ينتهي وصف إلى صفته

أقصى نهاية علمي فيه... معرفتي

بالعجز منّيَ عن إدراك معرفته»!

خلاص يا أخ... انتهى «كل» كلامي. هل لديك أقوال أخرى... لي!!

ـ قال بعد كل هذا الإصغاء: وحشتيني حتى العظم.

ـ قالت ضاحكة: أعرف... لازم أوحشك، والآن.. مضطرة أقفل، أكلمك في وقت آخر!

# الفصل السادس عشر

## التأمل جُوّانياً

وقف الفجر على مشارف الوقت... عادت «فارس»: أصداءُ صوت حبيبة القلب «سارة» من البعيد:

ـ إطرح شكوكك.. غيّبها في ترداد الموج.

نعم... هذا صبح قادم، في كل يوم: صبح يحمل أغنية للغد وأماني.. فمن هو القادر على الغناء.. على الانبعاث من همومه اليومية بباقة أماني جديدة؟

يراوده ـ ثانية ـ صوت «سارة» بأصداء مكثّفة.. كأنها تغني له: كأم، وكأنه طفلها المدلل في مهده. والكلمات يستعيدها من ذلك الزمن القديم، يوم طلعت كزنبقة في شرنقة السابعة عشرة تدرج من الطفولة إلى نهدة الشباب.. تقول له كالغناء:

ـ إمنحني صدرك.. أُبحرْ فوق رحابته نحو الحلم.

وتعال.. توسّدْ خفقة قلبي، أمزجها فيك... يا أنت/الحب الباقي في أخلص ساعات العمر!

يفيق الآن من هذه الأصداء كالتراتيل.. ويهمس لنفسه متسائلاً:

ـ هل كان صدىً.. هذا الصوت القادم بنبرتها من بُعدها، أم كان هو الحلم.. ليُمضّه في السهر الجارح؟!

ها هو، وأصداء صوتها: يجمعهما «صوت» في قمم الحزن.. يوشوش إصغاء قلبه المشتاق إلى دفئها، حتى يهدأ صخب الموج، ويفرَّ البحر من الشاطئ.. ويطلع وجه «سارة»: قزحياً، ميلاد ربيع قادم!

ومثلما أمضّه الحلم في السهر الجارح.. ها هي الأسئلة في الأصداء ـ أصداء صوتها القديم، وأصداء تلويعها الجديد له ـ تدفعه ليردد أغنية من زمن صوتها القديم لعبد الحليم:

ـ (رميت نفسك في حضن.. سقاك الحضن: حزن.. حتى في أحضان الحبايب: شوك يا قلبي...).

هل يحلم بغيرها... هي المرأة الخرافية؟

هل يحلم: بأن لا تحلم به امرأة غيرها؟

يريدها ـ وحدها ـ في كل هذا الزحام... أحبها هو، لم يستعبدها... استعبدت هي قلبه، لم تحبه!

بقي يحلم، يحلم، يحلم... حتى صار يحلم بالحلم، و... غرق، حتى استقر في قاع بحرها.

كان أشد حُبّاً لها في قسوتها هذه.. وهي كانت: أشد قسوة عليه في حبه الطاغي لها.

يقول لها في فواصل حواراتهما القديمة المتجددة:

حين يقسو الحب، يتحول إلى جرح.. وحين ينزف الجرح تُهدر الأشياء الغالية.. فأكفكف جرحي، أدرأه بحب أعمق حتى لا يواصل نزفه، وحتى تبقى أصداؤك في سري: صبابة العمر!

وها هو - في وحدته وجفائها - يشعر بأنه يتعلم بعدها: زيف الحديث، ونزف المشاعر... تساوت في العين كل الوجوه، وكل العيون، وكل الضمائر...

مَنْ الذي تبدّل وتغيَّر حتى في تعامله مع الآخر.. هو، أم هي؟

اتصالاتها بالهاتف صارت قليلة، مختصرة.. نبرة صوتها: افتقد منها الدفء، وفي حواره الذي تبتسره: يحاول أن يجذبها إلى كلماته التي يعبر بها عن حبه لها، لكنها صارت تربط مواعيدها وحتى حوارها «بالفُرصَة» لتحادثه.. وقد أبقت على هذا الخيط الرفيع الذي يوصل بينهما!

وما زال هذا «الخيط الرفيع» الممتد من جانب «سارة»... لا هي تريد أن يتواصل «فارس» بحبه لها، ولا هي ترغب في المبادرة من جانبها نحو هذا العاشق لها لتمنحه صبابة من حبها له، فأبقته معلقاً بين سمائه وأرضها.

يتذكَّر صوت «فيروز» بها، وقد ترنما بأغنياتها معاً زمناً طويلاً... حتى بلغ إعجاب «سارة» بفيروز: أنها قلَّدت في يوم ما قَصَّة أو تسريحة شعرها في بدء صباها وصبوتها وولعها بأغاني فيروز.

وتبقّى لـ «فارس» في واقعه اليوم: هذا الليل الذي يتجسد فيه صوت فيروز، في معنى كلمات أغنياتها العتيقة: (رحتوا م الليل.. صار الليل: ليلين). وهذا هو أرق «فارس» الذي صار ينادي به على كل من «راحوا م الليل»: الحبيبة، والقيم، والأهداف، والحب، والأمان... وتبقّت مشاعر الناس جائعة في زمن طوّحوا فيه بالحنان... لأنهم صاروا ينبشون في فواصل الكلمات الزئبقية، ولأن رؤوسهم ساخنة جداً، لكنَّ صدورهم أضحت باردة في هذا الشوق الغربالي بخرومه التي تتسع مع استغوال الحياة في الماديات!

❁

يتأمل «فارس» الحياة من حوله، وكيف صار الكثير من الناس: يهرب من نفسه.. كأنه يهرب من الحب والحبيب، ومن المواقف ذات القيمة، ومن المعايير التي ادّعوا تجديدها.

يستغرق «فارس» في هذا التأمل جوّانياً لملامح المجتمع الجديدة، أو للمتغيرات التي حدثت لتكوينات هذا المجتمع، والتعريفات التي أضيفت لفئات أطلق عليها المجتمع: المتدينين.. ممن لهم (أشكال) في اللبس القصير، والوجه، واللحية، ويحصرون الحياة في التجرد من الدنيا والاعتكاف على التقرب للآخرة... والبعض منهم يقوم بتوصيل دعوته هذه بأسلوب يتسم بالقسوة، أو بالفرض بعيداً عن الحوار، وتحريم كل شيء ينتمي إلى الدنيا بلا تفريق!

أما الفئة الثانية: فتأتي على النقيض.. تمارس التمرد، وربما تصل بتمردها إلى كسر العُرف، والعبث بالقيم الأساسية، وتذبذب المواقف، وهدم المعايير. وذلك من واقع نظرتها إلى الحياة التي تقوم

ركائزها على مضمون بيت شعر الخيام الشهير:

واغــنــم مــن الحــاضــر لــذّاتــه

فــليس فــي طــبــع الــليالي الأمــان!

وتجد هذه الفئة مجالات عديدة لتفريغ ألوان الغوايات، بعد نسف كل قواعد السلوكيات المنضبطة، أو القيم التي تبلور أهدافاً للاستمتاع الهادىء بالحياة ومباهجها.

وتبقى الفئة الثالثة المطحونة في الوسط بين الأولى والثانية.. وهي التي: تحلم ويُفسد الآخرون أحلامها، وتكافح لتصعد بضع درجات وكأنها تدور حول نفسها: لا تصل، ولا تتوقف عن الدوران.. وتسب الحياة، وتلعن الأماني، ويستمر صراخها حتى لحظة خروج الرمق الأخير.

وهذه الفئات.. لو تلفتت إلى الحياة حولها، فلن تعثر على ما تسمع عنه أو تقرأه، أو حتى تشاهده عبر التلفاز بمسمى: الحضارة، والمتعة، والأمان.. ولكنها تحملق في المشاهد التي تضخم: الإرهاب، وحوادث دهس الضمير، واغتيال الحب، وطعن الطيبة، وتفشي الأمراض الخطيرة المستعصية، وتزايد السجون في العالم، وظاهرة «الانتحار»، والتلوث، والمخدرات، وكساد «دور الإنسان» في استتباب السلام المزعوم.



في هجعة هذا الليل.. صرخ «فارس» وهو يفيق من تأملاته.. كأنه كان مرمياً على قضبان قطار بطيء صدئ العجلات.. يهرس جسمه، وأفكاره، وخفقاته.. فما أسخف أن يضاجع في هذه اللحظة: ابتسامة بلهاء بكلمة فرح تتسرب وهي لا تقوى على النهوض ولا على البقاء فوق شفتيه.

وفي هذا الهجوع... صرخ وراء صرخته رنين الهاتف، فقام متثاقلاً كأنه خارج من جولة مصارعة انهزم فيها بالضربة القاضية... رفع سماعة الهاتف بإرهاق يحسه في عظامه:

- آلو... أهلاً بتنقيبي!

- ماذا تقصد بتنقيبك؟

- أقصد أنك بئر بترولي الوحيد الذي أنقب عنه دائماً، وكلما اكتشفته.. بادرتِ إلى ردم نفسك في داخلي!

- هل أنت مريض.. حرارتك مرتفعة؟

- نعم... مريض بالتلفت إلى أصدائك، ولكني أسألك: ألم يحن بعد حديثنا؟

- أيّ حديث تقصد، أو تتطلبه بيننا؟!

- أريد أن أخترق حاجز صمتك.

- لم أعد صامتة... صرت أتكلم كثيراً حتى تضايقت من نفسي.

- ولكني أريدك أن تسامحيني.

- ولكن... على ماذا أسامحك؟

- سامحيني على دخولك إلى قلبي... صحيح، أنت لم تعديني بشيء، ولم تنفّذي إلاّ قرارات قطيعتك لي في كل مرة.. لم تقولي لي: انتظرني.. يوماً، دهراً، لقد انتظرتك بتفاؤلي وبأملي في عودتك من جديد دائماً... لم تقولي: أريد زمناً وعنواناً منك لنفرح

بخصوصيتهما لنا... أنا الذي قلت ذلك كله لك، وطلبته منك.

هل تعلمين يا سارة: لماذا لم أفرح بعودتك الجديدة المشروطة؟

أنتِ عوَّدْتِني: أن فرحي لا يتم... دائماً كنت تمنحينني الأمل مغلّفاً بالمستحيل.

- لماذا أنت دائماً تهاجمني؟

- ليس هجوماً عليك.. بل هو الفضح لأحلامي التي فسدت في واقع يحيِّرني معك، فأنت تتقدمين معي خطوة بكلمة دافئة تطلقينها في لحظة رقة مزاجيتك.. وفجأة تتقهقرين بي عشرات الخطوات، لأبقى واقفاً وحدي: أنتظرك من جديد!

وهذا المدّ والجزر من موجك، ومن عمق بحرك إلى شاطئي: يكسر أحلامي ويلقي بها وشلاً وأصدافاً فارغة.

- «أوكي»... تصبح على خير!



أعاد سماعة الهاتف إلى موضعها ببرود.

كجزء من هذا العالم، وبوحدته وفَقْده.. يشعر بأنه: يشيخ ويعتل، وكان في فراغ أيامه الأجوف: لم يتمنَّ غيرها - سارة - تملأه وتنقذه من كذبة العمر. لكنه بهذا المدّ والجزر منها، وبسلبياتها التي تطغى أكثر الأوقات، تدفعه بعنف ليكون جزءاً يذوب في نفسية هذا العصر، وفي جنون هذا العصر.. والكثير من البشر المعاصرين: لم يعد يعرف ما الذي يريده بالضبط. هناك مجرد «غوائل» تسرق من الإنسان عمقه، وأحلامه، حتى تصل إلى قدراته.

لقد أطفأته «سارة»... وقد جعلها في عمره: الحلم الأجمل، والرواسي التي لا تميد أبداً، والمدى الرائع البعيد الذي يتبلور سماءً لوطن قلبه... حتى دفعته إلى أن يرفع الآن في وجهها لوحة من كلمات قرأها بهذا النص: (سرّحيني من النفي والانكسار)!

فما أبعد الأرض التي أبعدَتْه «سارة» إليها، وما أقسى هذا الانكسار الذي صار ينغل في وريده: جرحاً!

لا يعتقد أنه أضاعها بمعنى: التفريط فيها.. بل هي التي كانت تواصل دفعه بقوة وإصرار بعيداً عنها إلى أقصى بُعْد الأمكنة والمشاعر، وفجأة... تندفع نحوه ـ كالشهقة المفاجئة ـ لتُغرقه عاطفةً وجنوناً، ثم تتلاشى كألعاب الليل الملوَّنة الفلاشية التي تُحدث دوياً في السماء، وتختفي في الظلمة.

ربما أضاعتهما معاً: أشياء من قهر هذا الزمان، ولكنه في قهر الزمان وقهر «سارة» لمشاعره نحوها، كان يخرج من ذلك التأمل الجوّانيّ إلى ما يشبه «الاستفتاء» لنفسه ولعواطفه.

ـ وهمس في أصداء صوتها الليلة: لا بد من أن يكون لنا خيار!!

ولكن... كيف! وهما يدلجان في أسئلة مستنفرة من واقع حياتهما الاجتماعي والنفسي.. لا تسبح بهما، بل تجرحهما؟

لم يبرد حبه لسارة، إنها تبقى في منطقة «الحلم» دائماً في حياته.

لكنَّ قلبها حوّله من ذهب إلى نحاس، برغم أنهما يشكلان

بأفكارهما، وبرؤيتهما الفكرية: نضج مسيرة جيل، صُنع من القلق: حُبّاً، وبلور الحب مرآة لنفس تتوق إلى عواطف غير متربة!

❀

في الصباح الفجري، بعد أن أمضى ليلته: سُهداً... قفز «فارس» فوق قامته، وركض إلى ورق وقلم، كأنه في لحظة مخاض، ميلاد جديد، أو كأنه في بهاء لحظة موت ترتفع فيها الصلوات مع شروق شمس يوم جديد.

لقد تكاملت شجاعته في هذه اللحظة المشبَّعة بامتزاج الميلاد والموت.. امتلك قراره الحاسم، فأمسك بالقلم، وكتب:

- يا عمر العمر/سارة:

في هذا الصباح البكر... استيقظَتْ قدرتي، ووجدت كتاباً كنت أحتمي بقراءته البارحة بعد محادثتك الهاتفية، وقد قلبته في نعاسي على الصفحات، واعتسفت النوم حتى حشوت به عينيَّ.. فاذا بعبارة تضج بهذا المعنى: «هل تظن أنك أحببت يوماً من يجب أن تحب»؟!!

وفي غبش الصباح.. التحمت مع هذه العبارة: صورة من أغنية لمحمد عبده نحبها، وهي: (ما حد يحب اللي يَبي... أبعتذر)، وكان مكانك في قلبي: عشقاً، وصداقةً، وخفقاً، ودفئاً. وأنت سري المعلن، ولغة نفسي، ومستقر أمانها.

وحتى لا أستطرد في ما حسبت أنه كان يضايقك طوال إعلان عشقي لك... فقد تحزمت صفحة الكتاب الذي كنت أقرأه بعبارة أخرى، سدّدها الكاتب وأغفى بعد أن قال: «هناك من يموت على أمل أن يحظى بعد الموت بمن يشتاق إليه»... فهل تعتقدين: أنني سأحظى بك بعد أن أموت؟

لقد وُلد حبي لك شعوراً لا ضد فيه، وكبر عشقاً مولهاً بك.. رائع الرمز.

واليوم... حتى هذا السؤال: (من يجب أن تحب) لم يعد يعنيني، فلم أعد ذلك العاشق الغريب الذي تسجنينه، ثم تحصدينه.

ها أنذا ـ يا معذّبتي الرقيقة ـ قد تحررتُ منكِ... أخيراً، وإلى الأبد!

تحررت... وربما هو: ميلاد جديد لهذا القلب الذي استَعْبَدتِ أزهى سنوات عمره، وربما هو: الموت الذي يحملني إلى برزخ.. ينجو فيه القلب من ساديتك معه!!

**«انتهت»**

جدة/ ١٦ ربيع الأول ـ ١٤١٨هـ/ ٢٠ تموز/يوليو ـ ١٩٩٧م




تزفُنا أشواقنا إلى الحب والفرح، ثم... ما تلبث عقارب الساعة أن تنسحب إلى مكان مليء بالاختناق كزجاجة طافحة بالرمل.

وليت الناس يتوقفون يوماً واحداً عن الضحك المصطنع، أو الابتسامة الصفراء.. لأنه ضحك فاسد مليء بالأصداف والصدأ!

حتى العشق بارد.. لأنه تحوَّل عند الكثير إلى حافز يخضع للمتناقضات في حياة إنسان هذا الزمان.. ولأنه عشق «مُعلَّب»: نفتحه في الليل إذا ما ترددت الأصداء المتناقضة في داخل النفس وخارجها، ونقفل عليه في النهار لنجري وراء الوراء... ذلك الذي يحدد مستوى معيشتنا ونسبة الترف في استخداماتنا المالية، بينما يزداد في كلِ يوم: تفريغ الوجدان من العواطف الصادقة، وتجفُّ العقول من فكرة الخير والمحبة للناس!!

ISBN 1 85516 538 4

